خديجه التومي

آخر الموريسكيات

قلب أندلسي

رواية

الطبعة الأولى:
1440 هـ / 2018 م

اسم الكتـــاب: آخر الموريسكيات.. قلب أندلسي
المـــؤلـــف: خديجه التومي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 240 صفحة
عدد المـــلازم: 15 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 20800 / 2018
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 631 - 2 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

دار البشير للثقافة والعلوم

خديجه التومي

آخر الموريسكيات

قلب أندلسي

في صندوق شوريّة.. شاشيّة من دمي وفرّاشيّة

روايــة

دار البشير للثقافة والعلوم

تصديـــر

عندما تخبرك العصافيرُ وصدفة الرياح بموتي لا تأتيني بالورود، اصمتْ طويلًا أمام قبري واقرأ عليّ فقط فاتحةَ الغياب، وقلْ في خاطرك حتّى لا تسمعك الكواسرُ.. كنتُ أحبّها، وامضِ إلى سبيلك.

واسيني الأعرج/ امرأة سريعة العطب

(1)

تصدير:

أنا مثلك مليء بالشّوق
لا أستطيع الذّهاب إليك
ولا أستطيع الرّجوع إليّ.

محمود درويش

الظّهيرةُ

القرية عالقةٌ بخاصرة عروس الشّمال مثل زمـرّدة، نصفها السّابح في اللّجّ ونصفٌ تُظلّله غابات الجبال، بحرٌ مرح في غيْر غلواء، وأمواج هادئة تتثنّى عند سفوح الرّوابي تُنازع الحقول خضرتها، والطيور مرفرفة تُنمّق وجه السّماء.

ومِن الشّرق اعتلت شمسٌ شتويّة صفحةَ الأفق في حياء، فعانقت أشعّتها الفاترة أغصانًا نديّة غازلها النور وعشقها الضياء.

والجوّ عابق بشذا الرّياحين وريح الحياة، وما هي حتّى انطفأت عين الشمس، وانبثق بالنّهار ليلٌ عاصف بالسّواد والهدير، وصارت النّسمات أمواجًا مُزمجرة تُقوّض المكان وما حوى.

أظلمتْ في يومٍ لقيط، فما عاد للقرية نبضُ حياة.

زفرَ روحي الزّناتي حريقًا كان يستوطنه في حشرجة.

مذْ عدنا والتقينا تعاهدنا يا ريحانة على تكفين كلّ آلامنا إلّا ما تمرّد، ومارسنا التّيه في الجبال المحيطة بالقرية، واغتسلنا في أوديتها المكلّلة بشجيرات العلّيق والزيزفون، وبنينا عالمًا من التحدّي كنّا ندري حدودَه، غير أنّا حاولنا اجتيازها، زادنا الحبّ وفرح اللّقاء،

وسياجٌ فاصل بيننا، وذاكرة ماكرة تأبى استدراجَنا إلى هول ما جرى.

مازلت أذكرُ أنّكِ قلتِ لي يومًا وأنتِ تُشعلين شمعتيْن في ذكرى اغتيال ولديْك، وتترفّعين عن دموع أطفأت تينك الشمعتين.

لقد كانا في عنفوان الشّباب، وكانا رائعين كملاكين، سأخاتل اليومَ قلبي وأزفّ له تاريخًا كاذبًا ليوم زواجهما، وسأرسم في مخيّلتي صورةَ عروستين جميلتين تختالان في فستانيْ فرح.. وسأظلّ في انتظار أحفادي إلى الممات. وصرختْ صرخة هزّت عرش الأرض وأرجاء السّماء.

ألمع وأزد يا روحي..

ولم تتمالكي عن السقوط أرضًا، وألمٌ لا يُقاوَم يكبّلك، ونحيبٌ لا ينتهي يكبت أنفاسك، وغمرتنا ساعتَها عاصفةٌ مفاجأة، وتكدّر كلّ ما حولنا.

ها هي العاصفة تعود القريةَ اليوم، فتعتو على وحدتي دون شفقة.

فزع روْحي لمشهد القرية ذاك، وقد فقدت حلمها الهادئ المعتّق بالسّواني الخضر تخترقها الثنايا..

كانت القرية تنام على حفيفِ الشجر، ووشوشة أمواج خجولة. صيّادو القرية الموريسكيّة وفلّاحوها البسطاء الذين ورثوا عن أجدادهم القادمين من غرناطة وقرطبة والمريّة وطليطلة؛ ورثوا حبّ البحر والأرض والسّماء، والتفنّنَ في الحرث والزرع والريّ..

يتحرّكون في مساحات صغيرة جدًّا وينبتون فيها من كلّ الثمار والأزهار، بينهم والتّربة قصّة عشقٍ قديمة.

هُـم أحفاد أولئك الموريسكيّين المسلوبين المطارَدين والمطرودين، الملقوْن في قوارب الموت المثْقوبة بتدبيرٍ من ملك قشتالة وقساوسة الكنيسة يحملون معهم نكبتهم وفسائل البُرتقال والزيتون والعوسج.. يعلمون أنّهم اقْتلعوا من أرضٍ لن يعودوا إليها فيباشرون–وهُم في عزّ اللوعة– التّفكير في تربةٍ أخرى جديرة بشجيْراته وحبّهم.

يُدرك الموريسكيّون أنّ بين القلْع والزّرع يقف هادمُ الحياة وصانعُها.

حين ألقتْ بهم القوارب– كما حكى الأجداد– بادروا يطْمرون الفسائل فلا تجفّ العروق. وهُم يتحسّسون ما علقَ بها من تربةٍ سوداء نديّة.. يذكرون أرجلَهم وقد انغمست في أعماقها عندما كانوا يُصيّرون أراضي أيبيريا جنّة.

في ذاك الزّمن البعيد، والكامن في الذّاكرة مثل جلطةٍ تاريخيّة لم تكنْ قرية منزل عبد الرّحمن العالقة بخاصرة عروس الشّمال بنزرت؛ على ما أصبحت عليه الآن، إنْ هي إلّا غابات بكْر، وبحر حالم ووحْشة حين يحلّ الظلام.. وجاءوا فكانت الحياة، بدأ الحرث والغرسُ، وإصرار على شجَر العوسج أسيجة شائكة تحجز كلّ مقتحم.

أيّ رعبٍ زرع في نفوسهم؟

خوفُهم كما دموعهم على أهْبَة، غير أنّهم سارعوا إلى التخلّص من مَداخن المفتّشين في النّوايا، وجعلوا مِن نكبتهم أسمدةً لأرضٍ ولودٍ بادلتهم عشقًا بعشق.

غرق روْحي لبرهة في البدايات ونشوة القرية بعشّاقها المرحّلين قسرًا من بلاد الأندلس، غيْر أنّ ضجّة صادرةً عن البيت المجاور وخطواتِ الرّجال وهُم يصعدون السلالم بسرعة وحزمٍ قد لفحتْ مشاعرَه بمرارة وحزن عميقين، وشرع يتابع من كوّة التهوية الحركةَ من حوله.

مِن داخل إحدى الغرف، كان نحيبٌ خفيف وبعضُ الشهقات مسترسلةً حينًا، متقطعة أخرى.

تقدّم أحدهم، وكان شيخًا وقورًا قائلًا: ابتعدنَ، دعونا نغتنمُ لحظاتِ الصّحو هذه، فالأمطار الطّوفانية عادت لتغرق القرية، وقد تمنعنا من إتمام الأمر.

كانت ثورةُ السّماء في الخارج قد حوّلت المكانَ إلى فوضى، الرّياح تعصف منذ الصّباح، وتهدرُ المياه الجارفة في الأودية المُحيطة بالقرية حتى انقطعت كلّ السبل والثّنايا.

صارت القريةُ تسبح فتظهر أشجارُها وبعضُ البنايات، وكأنّها

سفنٌ أسطوريّة لبحّارة نزلوا من السّماء.

تداعت بعضُ المباني، وسافرتْ إلى الأنهار والأوديـة رفقة حيوانات نافِقة، فلا يُرى غير رؤوسها تطفو وتعودُ للغرق في رحلة المياه القسريّة.

الجوّ المهبول خارجًا أصبح لا يعنيك يا ريحانة روْحي وقد انطفأت شعلتك.

انطفأت، وها هي المياه الطوفانيّة تحتفي كما لو كنت هنا وليس هناك.

قبل الأمس كنتِ تعشقين الرياح المصفرة بين الوهاد وحبّات اللّجين تنزل من السّماء تشفي غليل العطاشى للحُبّ والحياة.

يا ريحانة روْحي كنتِ تُحدّثينني عن حُبّك للمطر والأجواء الشتويّة بلوْنها الرّمادي، كان يُطربك خريرُ المياه، وكثيرًا ما كنت تشُدّين على يدي وأنت تقولين:

هذه المياه يا روْحي كلّها حبّ، وأنا أحبّك بقدر عطش الصّحاري لها.

ها المياه تغمر الدّنيا من حولك يا ابنة هاشم السرّاج وأنت هنا مسجّاة.. منطفئة.. باردة.

تراهم يُعدّون لك مياهًا أخرى غير التي كنت تعشقين، يُعطّرونها بأوراق الرّند والإكليل وماء الزّهر، كما مارس أجدادك

الموريسكيّون منذ قرون.. ها المياه في أوانيها يدفئونها.. أعلم أنّك تُحبّينها باردة صقيعًا كما نزلت من قلب الغمام معطّرة برائحة التربة النديّة، انتظرت سنينًا نزول المطر.

لو قبل الأمس.. لو قبل أن تبردي هكذا كصخرةٍ لانتفضت مذعورة تطلبين أن يكفّوا طقوسهم، فجسدُك لا يحتاج بعد الأمس مياهًا بقدر ما يطلب سكينة اللّحد والسكون الأبدي.

انطفأت إشراقتك كما بسماتك العذبة وقد أخفت خلفها جبالُ هموم وخيبات.. كنت أدري أنّ وراء مرحك حزنًا دفينًا وأسرارًا تنوء بحملها الجبال، وكم انتظرت أن تزلّ بك قدمُ الصّمود، وتفتحين قلبك وأنت تصرخين..

كفى يا قدري قد شبعت من الوجع.. قد هدّني التّعب والجري على صفيحٍ ساخن أبحث عن مفرّ ولا مستقرّ، قد شاخت العينان وحفيت القدمان وجفّ الرّيق، ولم ينطفئ فيّ أبدًا زيّاك الحريق.

لقد بليت انتظارًا، ولم يبلَ يا ريحانة قتالك، لبؤة كنتِ.

يا ريحانة روْحي.. يا ويلي الموجع وحبًّا سرمديًّا استنفر كلّ مشاعري، كيف أسامحك هذه المرّة وقد تركتني وحيدًا ألقيت بي مجدّدًا إلى ليالي الظّلمة والفراغ بعد أنْ حظيت بك من أنقاض هذه الحياة التي سطتْ على أعذب حلم جمعنا، بعثره قدرٌ غاشم فافترقنا قبل الأوان.

كنت أبدًا تُبادرين إلى الرّحيل، تنسلّين كنسمةِ صيف مخلّفة وراءك أخاديدَ من الألم وبحيراتٍ من الدّموع.

لو تيسّر لي الآن لنفذتُ إليك من بين كلّ أولئك الذين يُحيطون بك.. يبكون قريبة بعيدة جاءتهم وفي يدها موتها، لو تيسّر لي لصرخت فيهم «اتركوني أغسّل جسدها المنطفئ بدموعي، لعلّ معجزةً من السّماء تُدفئه ثانية، فمياه عيوني اللاهبة أنقى».

اتركوني علّ نيراني المُتأجّجة تبعثُها من جديد يافعةً جذّابة كما عرفتها مغامرة أبيّة تأبى الخُسران والانكسار، منبعثة نحْو أهدافها، كسهمٍ لم يُطلقه قنّاص يُخفي القنّاص مثل قنّاصة الثورات المغدورة، وتظلّين أنت صامدةً أمام جبال المصاعب وبحار المطبّات؟

امرأتي محرقتي، يا كلّ الحزن والفرح الذي كبّل عمري.

أتعلمين أنّ رحيلك الآن غدر، وأنّ استسلامك للحتم أنانيّة دمّرتني، أتذكرين حين حاولت مـرارًا أنْ أسحب منك وعدًا بالرّحيل من بعدي، وكنت تؤكدّين مبتسمة «سأفعلها وأرحل قبلك يا روْحي الزّناتي، فأنا لن أحتمل وطأة فقدِك، ولا حياة لي بعدك، وقد أندفع لحماقات، وإنّها لكثيرة منذ عرفتك.

أذكر أنّي سألتك يومًا بعد أن ردّنا القدرُ إلى ملعبه ثانية: من أيّ طينة أنت فقد تُهت فيك؟

وكانت منك ساعتها آهةٌ بحجم بركانٍ لا يهدأ «طينة أنا.. شكّلها الزّمان وعصف بها المكان حتى أضحت تُلامس حينًا السماء، وآخر ترتدّ إلى وهدة العراء.

أنا يا روْحي امرأةٌ من زجاج، سريعة الكسْر والعطب، وأنا صخرة من العصور الحجريّة لم تتلفني الأنواء ومحارق البراكين، إنْ حدجتني بنظرةٍ لا حبّ فيها تشقّقت مشاعري ولو احتجت منّي أنْ أدفع العمرَ لتسعد فلا أبالي، تجدني جبّارة في العواطف والعطاء سواء، هذه طينةٌ غريبة التّشكل وتستحيل على كثيرٍ من الرّجال وقصصهم الرومانسية المُفتعلة.

فيّ يا روْحي من البراكين ما يُغطّي نصفَ كرةٍ أرضيّة، ومن الرّقّة ما يُذيب قلوب «الحجر».

تلك ريحانتُك يا روْحي فتّحْ عينيك في عينيها ترها»

وماذا أفعل الآنَ بعينيّ بعدَك، وقد غاب نورهما وجفّت مآقيهما، وماذا صنيعي بصدري غدًا بلا نبض أو خفقان؟

فعلتها ورحلت مرّة أخرى دون وداع.. طعنة أخرى في شغاف القلب.

ألم يعنِك جسدي المُنْهك، قد هدّه العمر وكفّنت لياليه برودة الفقد والأسئلة الدّامية عقب رحيلك الأوّل، وقد تركتني للوَحْشة تبتلعني، والسؤال القديم مطروحٌ على قارعة قلبي أقضّ مضجعي «لماذا هجرتني قبل ثلاثين سنة حين كنّا نتّقد حبًّا وأملًا واستعدادًا لتفجير خزّان عواطف لم يعرفها الكون أبدًا؟»

وجاء جوابُك غامضًا مستحيلًا أكثر إيلامًا من السؤال «أحببتك، ثمّ هجرتك».

قلت لك منفعلًا: أعلم معاني حرف «ثمّ» من ترتيبٍ وتراخٍ إلَّا معنى الشّماتة والقهر في إجابتك، فأيّ حبّ يا سيّدتي هذا المُدمّر، المُحيل على غرف ليليّة باردة مظلمة موحشة؟

وأيّ حبّ يا سيّدتي هذا الهاربُ أبدًا خلفَ غيوم شتويّة تزرع الأمل بعيدًا عن حقولي الجدباء؟

وأيّ حبّ يا سيّدتي هذه العبوة المُنفجرة في صدري، نسفت مشاعري، فلا حزن ولا فرح لا ضحك ولا بكاء.

وردتي.. نجْمتي الآفلة وشمسي الغاربة.. أنت نجمتي الوحيدة التي حدّثتني عنها جدّتي قالت في أساطيرها «نجمتك لا تلمع يا ولدي إلَّا ليلة واحدة في العمر في انتظار رجلها، وما لم يتلقّفها حين النّزول نحو الأرض أفلت ومات عاشقها.

والآن تكبّلني أحزانٌ غريبة من أعماق ليلٍ شتويّ قاس، فتتكسّر الثلوج على الثلوج بداخلي، وينتفض القلبُ مبحوحًا يستجدي دفئًا مستحيلًا غائرًا في كهوف الذّاكرة علّ الرّوح تنبعث من ثنايا الزّمان وينفلت قدر عشوائيّ لا يعترفُ بالمنطق ولا بصيرورة الأحداث الخطيّة ليُزرع في أعماق عمّتها الوحشة وسادها السّكون الأبدي.

ظلّ شريط الذّكرى أمام ناظري يتكرّر بلا توقّف.. من تلك السنين البعيدة.. هناك في تلك المدينة الشماليّة الباردة في هدوء، انتقلتِ إليها تُواصلين الدّراسة.

كنت شعلةً مليئة باللّهو والفرح وطلب العلم والتفوّق، ليس بين الجلوس إلى درس في الأدبِ وفكّ للرّموز والدّلالات وعدو في الملعب سوى روح أخّاذة متّزنة تفتح ذراعيها للحبّ والحياة.

وكنت حبّك وهدفك الذي لا يخيب ومنتهى بصرك.

وما بين حبّك الفَصيح المندفع حتى الجنون.. وحبّي الصّامت المرتعش المتوجّس حتى الجنون نبت الضباب على الدّمن، وشرعت النيران في الخمود غير أنّ جمرها تحت الرّماد ظلّ متّقدًا كلّ هذه العقود.

أربكني حبّك.. فتلعثمت مشاعري، وبدلَ أنْ أحضنك وأصرخ «أحبّك وستكونين لي»، صمتت، ونارٌ بداخلي تأجّجت فرُحت أخمدُها وأبوح للهيبها بأنّي أبادلك حبًّا وعشقًا وروحًا ذائبة في الرّوح.

ولم أعِ، ويا لحماقتي أنّ الحبّ ينتعش تحتَ أنوار الشّموع، وتقبره تجاويف النفس والكتمان، وأنّ كهوف المتصوّفين لم تُفلح في جعْل الحبّ جوهرًا للعبادات في غياب الكشْف والتجلّي.

(2)

تصدير:

أضحى التّنائي بديلًا مِن تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا

ابن زيدون

الرّواحُ

ها كياني اليوم لفراقك قد تجمّد، أغرقه الحزنُ وقرب المياه المندفعة من السّماء بلا هوادة والرّياح العاتية لم تسكنْ من ساعات.. أظلمت مِن حولي في قلب الرّواح حتى حُجبت الرّؤية.

صرتُ متأكّدًا من أنّهم لن يقدروا على دفنك اليوم يا ريحانة الفقد الموجع. ستبيتين ليلة أخرى هنا، وستظلّ روحك تُرفرف حولي، تدعوني للثبات.

قد هزّني- والله- رحيلُك الأبدي، وأصبحت عاجزًا عن التّماسك، أخشى أن تكون نهايتي قربك هنا في هذا البيت المهجور مجهولًا. استأذنت صاحبه المبيت فيه حتّى أواكب عن بعد دفنك، وكيف لي الحضور؟

أنا الغريب عن الجميع والأكثر قربًا إليك من الجميع.

نجمتي ها قد أفلت، وها عاشقك ينتحب قريبًا منك. أكاد أصيح فيمَن حولك «دعوني أتمرّغ لمرّة أخيرة في حضنها، أبُثّها بقيّة أنفاسي وأشواقي التي لم تهدأ من سنين، فليس فيكم مَن يعرف الذي بيننا ريحانتي وروْحها، قصّتنا نسج فصولها حبّ مجنون أتى

على أخضر العمر وحصاده، حرائقه لم تنطفئ، مازالت تدفئ صقيعَ الرّوح وتسعف الفؤاد بالنبضات.

آهٍ من وجع الذّاكرة لمّا تشتدّ، وتظلّ تطوفُ بي في دهاليز الزمان.. وحين تشتغل بالألوان، أذكرك كما أنتِ زهرة الرّبيع وعطرُ النرجس وشفق أقحوان وشروق زهر اللوز بمارس.. وأنت كالحلم يسري، يُطوّقني أينما حللت، يتبع خطاي، يُحصي أنفاسي ويستوعب كلّ إحساسي.

أذكـرُ أنّك حدّثتني يومًا وأنت تضحكين عن ألاعيبكنّ وأحلامكنّ في الصّبا، قلت:

أتدري أنّ صديقات الفصل قد وزّع عليهنّ المدرّسين أحبّة، فلان لفلانة، وآخر لتلك.... وكنتِ روْحي الزّناتي نصيب ريحانة هاشم السرّاج.

فسألتك بعد أنِ استحكم الحبّ بيننا «كنت في حياتك اعتباطًا إذًا؟»

فانـفعـلت وأنـتِ تـردّيـن «أتعـتـقـد يا روْحي أنّي ممّن تهمْنَ بالفرص العشوائيّة؟»

أنت اختياري، ورجل العمر مهْما انتفضت مِن حولنا الظروف، ولو عصفت بقاربنا الأنواء ستظلّ يا روْحي نقشًا فرعونيًّا وتعويذةَ سحرٍ لآخر هنديّ أحمر على هذه الأرض، ثقْ من قلبي فهو لن يتّسع لغيرك، وإنْ فرّقت بيننا الأقدار يومًا.

في لقاءاتنا القليلة، كثيرًا ما كنت أقابل ثرثرتك وضحكاتك الطفوليّة بصمتِ عاشق. غليانُ شبابك وفورانُ عواطفك كنت قد أطفأتها بخجلي وصمتي، بحبّ كبير لم يعبّر عن نفسه.

ظللتُ أكتمك بين شغاف القلب والنفس، وأهيمُ بك في كلّ واد ومنحدر.. غيْر أنّي ضيّعت كنش أشعار كان لا بدّ من ترتيلها على مسامعك ليلَ نهار، حتّى أشفي غرور قلبك، وأروي ظمأ عشقك، كان صراخي خافتًا، وحبّي جبلًا هائلًا أخفاه ضباب من التوجّس والخجل وارتعاشة بلا معنى في قانون الحبّ الصارم.

مِن سنين طفولة بلا أمّ.. أنا مِن ذاك اليتم والانزواء جئتُ إليك. فكيف تطلبين منّي يا وردة الرّبيع أن أبوح بحبّك، وأصرّخ في الملإ وأنا ما تعوّدت أنْ يصرخوا بي قائلين «نحبّك أيّها الصبيّ الشقيّ».

لم تُجرّبي يا ريحانتي كيف يهفو طفلٌ إلى حضن أمّه دون جدوى، ويبحث عن أبيه دون جدوى، فيتيه بين الوجوه العابرة، وثدي الجارة يلثمُ نزر الحليب تقسمه نصفين بين رضيعيْن، صيّرني اليتمُ أحدّ الشقيقين.

وأنا طفلٌ قد ضاع منه عنوانُ الحنان.. ذاك الذي يسمُ حياة الإنسان من بدء الخلق إلى البرزخ.

لقد ظلّت يا حبيبتي الأيّامُ القاتمة تستوطن أركانَ ذاكرتي.. شعورٌ بالخوف، مزيج من الوحشة والتّيه، وصورةٌ لوجه الأمّ لا تُفارقني، ألجأ إليها عند كلّ عتاب أو صرخة، تُذكّرني بأنّه عليّ

الصمت والرّكون إلى الحيطان، أخاطبها.. أبثّها- عبثًا- حكاياتي الصغيرة وشجاري التّافه مع بنات العمّ، كنّ يكبرنني وكنّ أبدًا يُسارعن إلى الشكوى، تربت أمّهنّ عليهنّ، وتأمرهنّ بتجاهلي، والكفّ عن محادثتي أو اللعب معي.

يعلو صوتُها فيبلغني مزمجرًا معدّدًا صنوفًا من العقوبات، وأوّلها أنْ لا عشاء لي، وعليّ احتمالُ تقريع العمّ في مرحلة لاحقة.

أسمع هديرَها كسيارةٍ قديمة من داخل المطبخ «اتركنه في انزوائه وصمتِه، لا خير يُرجى منه المنحوس..» تعدّى على واد هرهار خير من واد ساكت»، وتواصل زوجة العمّ شطف الأواني وتلطيخي بأقذع النّعوت.

فيشتدّ فزعي وتبتلعني الحيطان حتى أصير جزءًا من برودتها وصمتِها، أبحث داخلها عن آذانٍ أسْمِعها بكائي بلا دمع، فما كان يحقّ لي إعلان القهر، أو ذلّ اليتم، ولا أمنيات طفل وشكواه.

سُمح لي أنْ أتفنّن في الصمت بكاءً وضحكًا وألمًا حتى ضمُر اللّسان، وتأكّدت لي وجاهة نظريّة عالم الأحياء «داروين» حولَ العضو الذي لا يستعمل يضْمُر، فكنت معك بلا لسان يا حبّ عمري، ذاك الغائرُ في غيهب الإخماد، والنهر في بيت عمّي والذّكرى الحزينة.

كان على دموعي أن تتكلّس في محاجرها، فقد استوفيت حقّي

من الشؤم من يوم رحيلك أمّي.

كنت أستجير بصور أمّي الباهتة في مُخيّلتي.. أنا الطّفل ذو اليُتم المبكّر، وأبثّها خوفي وحزني وشوقي إلى ضمّة وقُبلة ونومٍ بلا رعب في حضنٍ لم يجد الزمنَ الكافي ليحتوي أحلامي الصغيرة.

أخذتك أمّاه المشاغلُ واللّهاث وراء اللّقمة في تلك الحقول المجاورة والشحيحة أيّام القحط، تجمعين ما تيسّر من السّنابل التي تركها الحاصدون أو بعض الحطب للطهي.

لا أنسى سعادتي حين تشدّينني بإزارٍ على ظهرك، وتلتحقين بجمعٍ من النسوة في الحقول، لقد ظلّت روائح الحصاد وبقايا أعشاب نديّة تقاوم الشّموس في تحدّ مخزّنة كخربشات على الرّمل في ذاكرتي. كنتنّ تصدحنَ بأغانٍ شجيّة، وأنا من على ظهرك أتابع رفرفات الفراش واليعاصيب تنطّ تحت أرجلكنّ التي أدمتها الأشواك ونتوءات الحقول.

وكنت أمّاه مطالبةً بالمزيد من الأبناء لإثبات فحولة الزّوج، وقدراتِه الخارقة، وإنْ كان ثمنها عمرَك كلّه، كان ذلك بُعيْد الاستقلال، وجيوبٌ من الفقر والأمراض والجهل تُهيمن على الوطن الدّفين تحت أطنانٍ من النقائص والحاجة.

لم أسمعْ يومَ فجيعتي برحيلك سوى صرخات الطّلق تشُقّ

صخب بيت الأسرة الكبير، قطّعت آلامك أوصالي وشلّت أنفاسي.

كنت كلّما اقتربتُ من حجرتك ذاك المساء الحزين، أبحث في وجَعك وقد ذوّب طفولتي تأخذني الأيادي الغليظة تدفعني بعيدًا، فلا مكان للأطفال، اذهب إلى هناك.

الليلة المشئومة تلك سمعت توسّلاتك الواهنة بين وجعٍ وآخر «أين روْحي؟ هاتوا قبلة من روْحي، كبدي أمانة في أعناقكم».

فتردّ «القابلة» في جفوةٍ دعينا نخلص فهذا المولود سيُهلكك.

وفجأة، خيّم صمتٌ مروّع عقبه الصراخُ والعويل، وحركةٌ غير عادية، وجُمل متقطّعة تغدو مجرّد غمغمات حين يقتربُ أصحابُها منّي، يُرفقونها بنظراتٍ من البؤس والشفقة.. وفي غمرة الفَجيعة حملتني إحداهنّ إلى المضجع، وهي تُغدق عليّ مكعّبات السكّر.. وكان السّكر بطعم سكراتها.. أظلمت عيناي وتاهت روحي، وانسدل ستار الفجيعة، وعمّني كما الضّباب، وأخذني الصّمت إلى عالمه، ولم ينقشع ليلي أبدًا.

فغدتِ الحياةُ عندي قصيدةً غزليّة عذراء، أنشودة عشقٍ بلا لحن، لقد كنت نهرًا من الحبّ صمتَ خريرُه واكتفى بابتساماتٍ خجولة ودموع تنحدرُ في تخفٍّ.

ريحانتي، كانت ذكراي الحزينة تؤذيك فتسارعين إلى التّجاوز

مبتسمة: العشق يا عمري غريزة، عبّر عنه البدائي حين لم يكنْ له غير الحجر سلاحًا.

فكنت أردّ مبرّرًا: لم أتعلّم نظراتِ الحماسة والعشق من أحد، كنت هناك طفولة في أيّ ركن، مبعثرَ المشاعر والأحلام، اكتنفني خشوع مَن تعلّموا عند رحيل الأمّ باكرًا كيف يكونون في طفولتهم حكماء، فالفراشات.. تعلّمتُ في دفتري كيف ألوّنها دون أنْ ألاحقها في حقول الربيع أروم مسْكها، والزّهرات ظلّت في كراريسي يانعاتٍ، وعبثًا حاولت تقبيلها غير أنّي اكتفيت بالاشتهاء والأمنيات.

أنا يا صغيرتي كنتُ عنك صغيرًا، احتجتُ من الحبّ دروسًا تهدي سبيلي قبل أن أباشر عشقك المجنون.

فأنت غيمةٌ شاهقة كلّما تطاولتُ إليها علتْ، وأنت أسطورة ضجّت بها الرّموز.. كان يلزمك قاموسُ عشق استثنائيّ، وفصاحة سحبان وائل وحماسة أبي تمام وجنون قيس بن الملوّح وعشق ابن زيدون وخمريّة أبي نواس وزهدية أبي العتاهية وشكّ أبي العلاء؛ كان يلزمك لزوميّات من العشق.. وكنت أنا البسيط العاشق دون كبيرِ مقدّمات أو تكلّف المتيّم حتّى النّخاع في صمتي الذي ضيّعك منّي ذاك العييّ.. أما كان له البيان؟ وتلك العبوّة أمَا كان لها الانفجار؟

ريحانتي صغيرة كنت، وفيكِ من سحر الغجر هوى الرّحيل،

ظللتُ ألاحق عينيك أرسم من خلالهما خرائطَ أحزاني الصغيرة، فيكِ عشقت أمًّا سارعتْ بالغياب، وأختًا لا وجود لها، وحبيبة كنتِ بلا منازع، وكان حبّك من الغيب أمهلني ولم يهْملني، وحين اشتدّ على قلبي وصار وجعًا جاءك هوى الغجر المؤذن بالرحيل، تركتني خلفك كهشيم المحتضر تذروه يدُ القدر كما اتّفق.

أكّدت لي يا حبيبتي ألفَ مرّة أنّ تشوّهًا ما لحقَ منطق الأحداث؛ فباعد بيننا.

فكنت أقول لك: صدّقيني، منذ أحببتك شعرتُ بخطأ ما بصدد التشكّل داخلي.. أن أكون سعيدًا خطأ، وأنْ أفرح خطأ، وكنت متيقّنًا أنّ الحياة لن تُفلتني؛ ستُصلح أخطاءها وتُعيدني إلى نصيبي من الحزن، وجاء رحيلك سريعًا مثل غيمة صيفٍ هبّت فجأة من الأفق واعتلت في قلب السماء.

عشت غيابَك مجنونًا، وكتمت خيْباتي بيني وأضلعي، وانهالت أسئلة من نارٍ ألهبتني «لماذا ألقيت بي إلى بحرٍ من الظلمات والضياع واليأس؟»

في لياليّ الباردة الحزينة، ظلّت ذكراك تحتلّني رغم علمي بأنّي فقدت الأملَ في عينيك أخشع لدى حضرتها وأسافر فيهما دون يقين.

مافتئت لعنةُ اشتياقك تلاحقني، تشي للرّوح أن تتمرّد وينتهي أمري.

كنت أسأل محترقًا: كيف أفرّ من قدري وأنت قدري الرّاحل،

عشت فقدَه وحدي، ربّاه.. مَن يحملُ هذا الشوق عن كتفيْن أضْناهما سفر الأحبّة الأبديّ!؟.

لستُ أدري.. أجئت اليوم أرثيك أمْ أرثي حالي؟ كلانا- يا قلبي- عاش عمرًا افتراضيًّا بعد الفراق؛ فلا أنت عرفت النّعيم، ولا أنا طلّقت الشقاء، تباعد الجسدان ولم يعترِ روحيْنا أيّ انْفصام، ظلّتا تتناجيان على امتدادِ السماء بعد أن ضاقت بهما الأرض وصدور البشر.

كنتِ قدري الهارب، ووجعيَ الدّائم، وشيخوخةَ أحلامي المُبكّرة. رحيلك كان حائطًا للميز العاطفي، حيث وجدت نفسي أجوب شوارعَ الحيارى وقد أثخنت فيهم الجراح.

كنتِ يا ريحانتي امرأةً تُشبه وهْمَ السراب؛ يغريني ثمّ يلقيني.

توجّهت إليك في أيّام اللقاء الأولى بعد الثلاثين سنة بعينين طمَسَهما الحزن؛ أستفهم عن رسالتك الأولى في تلك السنين البعيدة حين ألقيتها لي مثل قنبلةٍ وذبتِ في الحياة، تستعدّين لاختبار الباكالوريا.

رسالةٌ موجزة، وصاعقة كتبت فيها دون سلام: لقد بلغني من أحدِ رفاق القسم أنّك تراني عابرةً في حياتك مثل غيمة صيفٍ أو نشوة ربيعيّة، وأنّي كحلم جميل سرعان ما يخبو. وما دريت أنّي جبلُ كبرياء، أنا الريحانة ولست العابرة، ولن أكون في حياة أحدهم إلّا

أصلًا ثابتًا وفرعًا في السماء، وامتدادَ عروقٍ في قلب الأرض، أبحث لك عمّن ترضى بصلوحية محدودة مثل علبة ياغرت.

لم تتركي لي- عقب الرّسالة- بصيصًا أدفعُ منه الوشاية، وعلّقت كلّ أملٍ في التواصل، أردت أن أصرخ وأقسمَ وأجزم بأنّ الواشي قصد هدمَ ما بيننا ليستأثر بك، لم تتحرّيْ يا ريحانة.

فقد كنتِ يانعةً كابتسامة طفلٍ تفتحين ذراعيك للفرح حدّ الطيران، فخفتُ جنونك الجميل، وصبرت في صمت، وقد هدّني الواقع وسنينٌ من الحزن فيما طار بكِ الحلم في ثنايا الوجود. وظلّ الحبّ الغامض، وغيرُ المعلن، المليء باليأس وبوادر الفراق؛ يفترسنا لسنتيْن، إلى أن كسرت روحانا الحصارَ، وعدنا حبيبيْن مثل عواصف تلتحم بالفراغ.

بداخلي بركان مشاعرٍ وهزّات من العاطفة تدمّر الجبال، ولكن حُجب الصّمت تكفّنها فأكتفي بابتسامة ملؤها الخوفُ والتوجّس، وتردّني حيطان الصّبا إلى برودتها وزواياها الحالكة فأنبري أستجدي عونًا من الفراغ والتيه علّه يدفعني إلى التعبير عن جنوني بك وعجزي عن البوح فيما أراك تنسلّين من بين شراييني.

انتفضتْ ذاكرتك أمام نبشي وقُلتِ مولعة: إيه يا حبيبي! لقد عدت بي عقودًا إلى الوراء.. لقد اتّفق لي حينها أنْ أهدي أساتذتي

صورًا لمدينة سوسة الرائعة حيث انتقلت أكمل دراستي الجامعيّة وكنت مِن بينهم.. وسرعان ما تلقّيت منك رسالة تقطر حنينًا ورغبة في رأبِ ما انقطع، لقد كنت يا روحي أكثر واقعيّة، لامست الأرض وحلّقت خلف الضباب وجنّحتْ بي الشّعارات، آه يا قلبي.. ما كان أحلى الرّجوع إليك، لو اكتمل، لو لم نقطع شرايينه؛ كلّ بمشرطِه.

قلت لك ساعتها مقهورًا: لقد استشعرتُ يا ريحانة أنّك تتهيّئين لرحيل آخر مختلف، وأدركت أنّ خطابك قد شُحن بدلالاتٍ ورموز تؤكّد هوّة ما بيننا، ألم تقولي لي ذاتَ لقاء خاطف قبل التحاقك بالعودة الجامعيّة: «صمتك يا روحي مقبرة وأدت أحلامي، أروم وجودًا مغايرًا، وعمقًا في الأفق.. هل ارتقت أحلامك يومًا إلى السّماء؟

فما بدر منّي غير ابتسامةٍ رامت كسرَ مسافات من الجليد طفقت تُجدّر عواطفنا، وانشغل القدر يدبّج قصةَ النّهاية، ودّعتك يومها وغرابٌ من الشؤم يسوقني.. ولم يخبْ ظنّي فقد خنقتني بعدها برسالةٍ أخيرة استنفذت دموعي وحطّمت قلاعي الواهية، وأرْدَتني إلى عوالمَ من الكآبة؛ فقد كتبت «بيني وبينك وطنٌ يا روْحي وبئرٌ من الصمت.. خذْ بيدي واتْركني ألاحق الفراش وأمسك الأنوار وأعبُر خطوط المستحيل، خذْ بيدي يا روْحي ودَعْني أكسر قيودي.

أعنّي أن أكون ريحًا في كلّ الوهاد، منثورة في كلّ منحدر، أسافر

مع تباشير الفجر، وأسبح في موجات الزمن.

خلّ سبلي المتشابكة تلدُ سبيلًا آخر وضّاحًا بلا مطبّات.. فالسكون موت، والصمت مشروع انتحار، والبيت كهفٌ من الماضي، وأنا بنت غدي أتوق لرسمه بفرشاةٍ من الخيال والتّحدّي، فلا تقبرني في بيتك الموعود، وأعدُك بحبّ يظلّ غمامة حبلى تُظلّل سماءك، وإنْ تقاطعت بنا السماوات.

وختمت ريحانتي «سلام الوداع يا نبضي».

قرأتُ الرسالة ألفَ مرّة، وبألف طريقة، والنّبض خفّاق.. وفكّكت أنفاسها نفسًا نفسًا، أبحث عن أملٍ في كومة النسيان.

كرهت الرسالةَ وساعي البريد والحمامَ الزّاجل، وكلّ وسائل التواصل.. وظللتُ عمري أنتظر ساعيًا لا يأتي، ورسالةً تنسخ سابقتها لم تُكتب.

فأيّ حبّ مجنون كاد يُفنينا!؟ وأيّ عبثٍ غاشم عشّش في عواطفنا وفرّخ؟

أعجبُ يا ريحانتي كيف أمكننا العيش وقد حملنا كلّ تلك الأعاصير من الحبّ والفصل والوصل دون أن تُمطر نارًا ويعُمّ الطوفان.

أُدرك الآن أنّ ما بيننا كان خارقًا للعادة، وأنّ اجتماعنا كان مآله كارثيًّا ستعجز الأرض بعدَه عن التّماسك.

ريحانتي يا كلّ العمر، ها أنّك ترحلين.. وأنا هنا قريب جدًّا

منك، وأعجز عن الجثوّ عند رأسك أُقبّله قبلة أخيرة. أتذكرين لمّا أعادنا القدر إلى ملعبه حتّى يتسلّى ببقايا العمر قلتِ لي ضاحكة «عِدْني أنّك ستكون لي في الجنّة.. لي وحدي، أحذّرك من حور العين؛ فلن أعترف هناك سوى بقانون الحبّ».. يومها أبحرت عيناي في وادٍ من الدّموع وأنا أجزم لك أنْ لا امرأة سواك حظيتْ منّي بكلمة أحبّك.

كانت العبارة تقف مشلولةً في الحنجرة، خنقني حبّك.. وسدّ حولي كلّ المنافذ، كان سجّانًا جميلًا على غير عادة السّجّانين، حبّك طامة أخذت جميلَ سنين عمري، ولكنّي ما استبدلت مشاعري ولا قدرتُ على نسيانك، ولم يجعل الله لي من قلبيْن في جوفي؛ فيكون أحدهما لأنثى غيرك.

(3)

عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي

أبو العلاء ابن زهر (من الموشّح)

العصرُ

وميضُ البرق هذا العصر ظلّ يشقّ المكان ويخزّ ذاكرتي فتعود حيّة نشيطة مُفعمة بالتفاصيل، وسحرُ المياه الثائرة اقتحم الخفايا ينشر ألواحَها فبدت نظيفةً برّاقة اعتلى منصّتها لقاءُ الاسترداد الافتراضي في يومٍ شتويّ مميّز، وكنت يا ريحانة بصددِ إمتاع المتابعين على شبكة التّواصل ببعض النفحات الأدبيّة «أيقونة الكلمة».

وكنت أغذّي الخيال مثلهم، فأعجبني قولُك «جنّ الليل والنّجوم غائرات، وسرتْ أحلام الحيارى أدفاقًا أدفاقًا تجوب كلّ الوهاد والثنايا، وعلى مدى الفلاة ترسم شروقًا وتبني فجرًا دائمَ الضياء، فلا الليل باق، ولا اليأس من شيم نفسٍ تعلّمت كيف تهزم جبالًا من الدّموع وبئر أنّات... حتى جاءتني منْك مشاركة خاصّة ألهبتني وألقت بي في أتّون من الحيرة، كتبت:

ثلاثونَ من الأعوام فرّت
وأنا كما أنا
حبّ صبابة وهوى
فيا فالقَ الحبّ والنّوى

ويا باعثَ الحياة في النّبت والورى
هذي روحي كما أبدعتها
أنا العاشقة متيّمة
ضاع منّي وباتَ الحلم سُدى
والعمر كان فرحًا مرتضى
قد أضحى نهارُه بلا ضياء
نعيق بين.. وسهاد ليل
ونشيج بلا منتهى
ربّي إن كان حبّي مرضًا..
هبْ لي من لدنك الشفاء
ربّي إن كان حبّي خرقًا..
فأجرني من المعاصيا
فأنا العاشقة متيّمة
أركض على غير هدًى
وبي من الوجد والحنين فائض
قد تجبّر وطغى
فيا فالقَ الحبّ والنّوى
ويا باعثَ الحياة في النّبت والثرى

هذي روحي خذها مهرًا لذيّاك الهوى

يومَ قرأت ما نشرتِه على صفحتي، وكان ينضح حبًّا أبديًّا وفناءً في الذكرى؛ انفجرت ألمًا وغضبًا على غير عادتي «مِن أيّ طينة أنت؟

ألم تدركي خطورة قراراتك السابقة الخرقاء، أكنت واعيةً بما خطّت أناملك في تلك الرّسالة الثانية المُدمّرة، لقد كان سكّينًا سفّاكًا أحلّ عواطفنا وماضينا وحاضرنا، ولم يُبق فينا قطرةَ فرح.

لقد كتبتِ في جُمل قصيرة مُلغزة حمّلتها الرّسالة السكّين «بيني وبينك وطن»

انخنقت حنجرتي وأنا أُردّد «وحبّنا واللّهب الذي بيننا، أليس ممكنًا الجمعُ بينهما والوطن؟

بلى يا صغيرتي، فلك منّي العشق كلّه وللوطن.

ثمّ أردفت وثورةُ الشباب قد بدأت تتلبّسك وتنتزعك منّي شعرةً شعرة:

أحلم أنْ يتحوّل بيتي إلى غرفة عمليّات منه تنطلق المسيرات والثورات في وجْه الطّغيان، أرفض أنْ أكون امرأة عادية تنتقل إلى جوار الزّوج، وتدفّقت الشعارات تغمر رومانسيّتك، وتدفن قصورَ الرّمل التي بنينا ذاتَ حلم معًا، ورُحت تنحتين سيوف النّضال كما

كنت تؤكّدين.

وأصيب قلمُك بإسهال لم أعهدْه، كتبتِ «إنّ الحياة الجامعيّة وحدها تنحت الكيان.. تفتح الأذهان عن المسكوت عنه وما يُراد طمسُه من قِبَل المستبدّين، فأنا يا روحي رغبت في اكتشاف هذا المخبّأ، وقد قدّرت أنّه يتعبك اللهاث خلف عيوني الباحثة عن آفاقٍ بلا حدود.. لقد هزّني من الأعماق التّناقضُ الجذري بين مختلف التيّارات الفكريّة والسياسيّة النشيطة داخل أسوار الجامعة، وأراني قد انْجررت إلى قلب الصّراع أروم الغوصَ في لجّه العاتي، لم أرغبْ في أن تغرق معي في تفاصيل قدْ لا تعنيك.

لقد كنت يا روْحي في لقاءاتنا الأخيرة تُحدّثني عن البيت والجدران وقيْدنا الأسري، وكنت حينها أبحثُ عن فضاءٍ بلا أرض ولا سماء.. عن مطلق الحقيقة بلا لون أو انتماء.

أبحث عن ذاتٍ شقّتها الدّروب ولم يكن مِن بينها درب الرّجوع إليك، وإلى بيتك المنذور.

أذكر يومَ انتظرت عودتي من الجامعة، وكانت محطّة الأرتال تعُجّ بالمسافرين والفوضى.. كنت يومها مرهقةً وجائعة، وبي من الضّيق ما يُفجّر السّماء.

قلت لي بابتسامك المعهودة: سيكون بيتنا صغيرًا يا ريْحانة،

غير أنّه سيضجّ بلهْو أولادنا وصخبهم، وكنت حينها أضجّ تحوّلًا وانفتاحًا وغوصًا فيما يجري بعد أن كنت خلف أسيجة حقول أبي أحلم بالفراش وأسقي الورود، وأمرّغ وجهي في الأعشاب النّديّة وأحلّق بأجنحةٍ مستعارة من البلابل وخطّاف الرّبيع والسّهر في اللّيالي المقمرة حذو الجابية، وليالي الصيف الجميلة لّما كانت تطلب منّا جدّتنا شوريّة بنت المؤيّد جواد الغرناطي أن نجلب الحصير ونتحلّق حولها نسمع لها ولنقيق الضفادع ونوْح بومٍ عشّش في بيت جارنا بعد أن صار خرابًا بموت أهله.

لقد ظننّا في الصغر أنّ حكاياتها من نسْج خيالها قبل أن نبدأ دراسة التاريخ، ونعلم بوجود حقيقيّ لبلاد الأندلس، وبسقوطها المدوّي، وأنّ حرائق جدّتي لم تنطفئ بمرور الزّمن.

كنت أثيرُ حفيظتها حين أتبرّم من حديث الجدّة شوريّة عن الأجداد والماضي الحافل بالأمجاد لولا أطماع السّلطة واستشراء الدّسائس، وكانت تنهرني قائلة «مَن استهان بخبرات الماضي لن يسلم حاضرُه، وحتمًا سيضيع منه المستقبل، اقرؤوا التّاريخ تفهموا واقعكم وانْفتحوا عن الآخر تستبطنوا أنفسكم»..

كانت تروم شدّنا إلى الأرض والأسلاف حتى نكون.

آه يا جدتي.. كمْ كان الماضي عبئًا تنوء له الرّاسيات، كنت أسألها

«أيعقل أنّ ما حدث قد حدث؟»

فكانت يا روْحي تتنهّد في حشرجة وهي تقول: «لو قُيّض لحكايتنا أنا ورووديسة أختي الكبرى أن تُكتب؛ لكانت أسطورة»

يا ابنتي كنّا صغيرتين لا نفقه كثيرًا ما كان يحدث حولنا من المعارك والدّسائس والثارات وأعداء غرباء وإخوة أعداء يتطاحنون كما كان يتبادر إلى مسماعنا فقد كنّا من بيتٍ ضالع في الحكم والسياسة من عقود.. وكان الكبارُ ينقلون معاركهم وهمومَهم إلى الدّاخل.. كان حيّ البيّازين الذي انتقلنا إليه زمنَ السقوط والتهجير مسعورًا، وضاقت سبلنا عقب صنيع جدّك الأكبر «جواد الغرناطي» بالجنود القشتاليّين الذين هاجموا الصبيّة المسلمة، لقد عشنا كلّ صنوف القتل والاستئصال، يا ابنتي قتلوا.. خرّبوا.. وأحرقوا الحيّ بمَن فيه أحياء، ومَن نجا تشرّد في جبال البشرات وكهوفها، بل مارسوا عقابًا جماعيًّا على قرى بأكملها فسحقوا قرية «غويخار سيرا» بما فيها من اليهود والمسلمين انتقامًا ممّن ذهبوا للبشرات.

كذلك وصفت لنا «معاريف» جارتنا اليهوديّة التي قامت على حمايتنا لمّا سلّمتنا إليها أمّنا تحت جنح الظلام ذاتَ رعب، وكانت تستعدّ للهرب إلى الجبل قبل موجةٍ أخرى من الانتقام القشتالي.

معاريف اليهوديّة التي ظلّت لسنواتٍ تقصد الكنيسة في حرصٍ

وتعود للبيت يهوديّة خالصة فقد كانت تسرّ لنا في توجّس «لولا صنيعي هذا ما بقيْنا أحياء، فعندما تندلع نيران الأحقاد والاستئصال تفقد الحياةُ كلّ معنى، لقد عشنا العقودَ في كنف أجدادكم المسلمين وشاركناهم في بناء الحياة، فلمَ تحوّلت الأندلس الآن إلى مقبرة؟ ولم أصبح دينُ يسوع بلا رحمة؟

كانت كثيرًا ما تردّد على مسامعنا بصوتٍ خفيض «لا أرى في طقوسهم أيّ نفع ما دامت تخلو من الحبّ»، وتضيف ساخرة «يحيون جمعة الآلام ويذيقوننا الآلام ألوانًا»، وتردف دون أن نعي ما تقول «صحيح أشاركهم في الكنيسة صلوات الساعات؛ لأنّها من تراثنا اليهودي، ولكن كيف لي أن أقبَلَ باستحضار الرّوح القدس لتحويل الخبز والخمر إلى جسدِ يسوع ودمه.. ويتملّكها ضحك ساخر

«من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه»..

وتسأل محتارة «كيف يقدر هذا أنْ يعطينا جسده فنأكله!؟»

وكانت حين يخيّم الليل وينقضي زمنُ الزيارات الفجائيّة التي تنفّذها محاكم التفتيش للبيوت المستراية تسحب سفرَ التوراة من صندوقٍ خشبيّ مرصّع بالفضّة، وعليه تيجان وكساء مخمليّ مطرّز بخيوط الذهب، وتبدأ تراتيلها.

كنت أقطع على الجدّة استرسالها وأنا أقول: «ألم تحاول معاريفُ

إدخالَكما في اليهودية؟» فكانت تردّ: أبدًا لم يسعَ اليهود منذ القديم إلى التبشير باليهودية، وبقيت علاقتهم بـ«الأغيار» كما تقول معاريف بعيدةً عن الدعوة والتبشير، ثمّ لا تنسيْ نحن لم نولد من أمّ يهوديّة.

رغبتي لسماع التفاصيل جارفة، فكنت دائمًا أسأل «ولكن ما الذي دعاكما لمغادرة غرناطة يا جدّتي؟ ماذا لو بقيتما مع اليهوديّة العجوز؟»

تجيبني في تشنّج العجائز وقلّة صبرهم: لا تقطعي حبل الذّكرى فقد غدا أوهنَ مِن بيت العنكبوت، يا ابنتي.. المصائر تُملّك للقادرين دون العجزة المستضعفين.. لقد حرصت معاريف على إخفائنا داخلَ بيتها، فلا يُسمع لنا صوت، ولا يُرى لنا ظلّ.. كنّا نراها تنتفض رعبًا عند كلّ طرقةٍ فتسارع إلى إدخالنا إلى مقصورةٍ أحكمت تضليلها بخزانة، فنظلّ داخلها بلا أنفاس حتى تنتهي الزّيارات الفجائيّة المريبة.

وكانت تُعلّق في توجّس «لقد تحوّل كلّ الجيران إلى جواسيس يشتغلون لدى محاكم التفتيش، نما خوفي عليكما وأنا عجوز أخطو إلى يبسي، فمَن لكما مِن بعدي. لا بدّ من حلّ ؟

صرت أخاف عليكما، فمحاكمُ التفتيش لا ترحم كبيرًا أو صغيرًا.

كانت تضرب كفًّا بكفّ في حرقةٍ وتأخذها الهمومُ فيجافينا النّوم، ونظلّ حذوها كغزالتين تعلمان أنّ الوحش رابضٌ عند العتبة

ينتظر الزلّة القاضية، في قرم لدماء موريسكيّة من سلالة جواد الغرناطي.

وما هي حتى أفَقْنا يا ابنتي على معاريف ذاتَ صباح شتوي حزين، وهي مستبشرة وفي كمد ضمّتنا.. قبّلتنا، قالت أحبّكما شوريّة ورووديسة، ولقد حرصت أنْ تبقيا مسلمتيْن كما وصّت أمّكما «فيحاء» بنت المستنصر الدمشقي، عرفتها لمّا كنت أتردّد على قصرِ أبيها أتاجر في الحرير وقطع الحليّ النّادرة، ولمّا خُسف ملك أهلها في حروبِ الطوائف تزوّجت وانتقلت للعيش في حيّ البيازين قرْبَنا، كانت سخية وخلوقة، أحببتها كابنة لي.

واستطردت وموجٌ من الدّموع يغمرها: الحاصل ستغادران قريبًا، رتّبت بما عندي من مال سفركما، وعلينا انتظار ساعة الصفر.

صعقنا حينها، أمسكنا بتلابيبها إلى أينَ نسير؟ لا نعرف غيرك يا معاريف.. اتركينا حذوك علّ أمّنا تعود ذاتَ قدَرٍ إلينا، علّ الله يقيّض غيرَ هذه الفاجعة، واندلع البكاء حريقًا في الأرواح.

قلتِ لي ريحانة يومها وأنتِ تقطعين قصّة جدّتك وأختها روديسة

أرأيت يا روحي أنّ دمائي التاريخيّة قد انسابت من هناك، وعادت اليوم، وبعد قرون لتسقي تلك الأرض وكأنّها لم ترتوِ بعد. أمْ يا ترى هي الأجداث المردومة في أقبية محاكم التفتيش والأديرة

والكنائس، تريد وخزَ ذاكرتنا المحمّلة بالهزائم والصمت، علّنا نعي يومًا أنّ الموت الغادر والمعلَن هو مصيرنا ما دمنا بلا ذاكرة، وما دامت الأرض عندنا بلا ثمن.

فأردت تهوين شعورك بالذنب، قلت: بين مأساة أجدادك واغتيال الولديْن قرونٌ مرّت لا أعتقد في وجود ناظم مشترك بينهما.

فانتفضت صاخبة: لا يا روحي، التاريخ لا يعيد نفسه بالتأكيد، ولكنّه يلتحف بعباءات مغايرة، ويتصرّف في الأمكنة والأزمنة وبعض الشروط ليثبت نفس النتائج الحتميّة ألست معي في أنّ الحياة كلّها سلسلة من الحتميات، وأنّ الهزائم أو الانتصارات تبنى على نفس المقدّمات تقريبًا؟

قلت لك: أقنعني تحليلُك فهلّا أكملت لي حكاية البنتين؛ جدّتك وأختها؟

فاستدركت: آه يا روحي من تحوّل مآسينا إلى مجرّد حكايا نُزجي بها تاريخًا يأبى أن يكتب بحروفٍ حقيقيّة، وأنّ خوفي من أن تُصيّره دودة النسيان والهوان فولكلورًا مرفوقًا بالرّقص والألوان الموريسكيّة الزاهية ودقّ الطبول وعطر البخور، فتضيع في خضمّه الأشلاء الموءودة والأعناق المقطوعة والخيانات الكبرى التي باعت الأوطان بفروج النساء.

وعاد بك أفيونُ الحكي، فقلت: ذكرت جدّتي شوريّة «إنّه عند

الترحيل كان اللّيل يكفّن الحيّ بالسّواد.

وبرد متوحّش يسري في المكان، والصمت مُريب يشي بالنّهايات، كنت مع روديسة وغريب صامت يرافقنا الدّروب الضيقة، نخاتل العسس خارج حيّ البيّازين باتجاه منفذ بحريّ، قالت لنا معاريف وهي تودّعنا بسيلٍ من الدموع، والصقيع يهزّنا هزًّا: الليلة، ومع الفجر تبحر سفينة باتّجاه عدوة المغرب، ستكونان بأيدٍ أمينة، وغالبها مثل الغثيان وهوت.. فأمسك الغريب بعض أغراضنا وأومأ أن سيرًا لا وقتَ أمامنا للتفاصيل، قلع العروق والسّفر في المجهول، بل الموت بلا سبب يصبح تفصيلًا حين تباع الأوطان.

تتنهّد مداخن ألم، وهي تكمل: مشينا.. ومشينا، وكابوس رهيب يسوقنا، والأسئلة تزدحم في أذهاننا، ماذا يخبّئ لنا القدر؟ وأيّ مصير يُسطّر في الغيب لنا؟

موريسكيّتان زهرتان تغادران خلسة أرض الأجداد إلى المجهول.

كانت الأضواء الباهتة الحزينة خلفنا، وكان الدربُ أمامنا موحشًا مليئًا بالتيه، والأسئلة الحارقة تختفي رويدًا رويدًا تاركة للرّعب كلّ المساحات.

وفجأة، أنهيت ريحانة السّرد، وغابت حكايا الجدّة، ونظرت إليّ بملء عينيك وأنت تقولين:

لا أدري يا روْحي، لم ذكّرني كلامك يوم كنت تودّعني وأنا أتّجه

إلى الجامعة ونحن في محطة الأرتال بجدّتي ووصاياها، وأنا في لجّ التجريب أدفعُ عن سبلي كلّ الوصايا، وروائح الوصاية، فأرديتك بلهيبِ ثورتي، وأنا أقول: خلّ السّبل تتقاذفني حتّى أجدني علّني أعثرُ عليك بدربِ ما في هذا الوطن، وسيكون لك الحبّ كلّه.

لقد ملّكتني يا حبيبتي حبًّا افتراضيًّا، وقصّة متضمّخة بالهجر والألم.

وظللتُ زمنًا تحت وقع صدمةِ الرّسالة السّكّين وقد غمدتها في صدري، ومضيت لا تلوين، فكنت أُردّد في غيابك بصوتٍ من تيقّن الهزيمة، وأنا أيضًا من هذا الوطن، ويُمكنني أن أحبّكما معًا، فليس في الأمر انتقاصٌ للوطنيّة أو للعواطف.

ظلّ حبلُ ودّنا بيدي أُمسكه مسكَ صيّاد منكودِ الحظّ، لم يدْرِ بعد أنّ الطُعم قد الْتهم، وأنّ الأسماك لن يعنيها خيطٌ مُدلّى تهُزّه الأمواج خاويًا بلا معنى.

أنا الطيّب الخجول، اكتنفني صمتُ الأموات رغم هول الفاجعة، كانت الصعقة أقوى من قدرتي على التحمّل، منذ أيّام قليلة كنّا نُسابق الطّير في سمائها عشقًا، وتحملنا ريح الهوى على أجنحتها فوق ربى الرّبيع وسواقي الغرام.

أجدني الآنَ تحت نيْر رسالةٍ فاصلة، وأراك هناك تُمارسين

الهروب إلى الوطن، كما تزعُمين، بعد أنْ كنت وطنك وسجّادة صلاتك ومسبحةَ مشاعرك وكلّ الدنيا في نظرك، ماذا فعلوا بك؟

أطفئي حريق السّؤال.

أيّ غسيل أتْقنوا حتى لم يتركوا فيك ذرّة حنين أو التفاتة إلى ماضٍ كان يطفح عشقًا ويشي بآتٍ من الحلم عجيب، أكاد أرى في الأمر سحرًا صيّرك بلا ذاكرة، بلا ليلة نقشت في القلب وشمًا أصبح يُساوي لديّ كلّ الذّاكرة، اختزل الماضي، وأوجز فيها الحاضر وكلّ العمر.

وظللتُ أصرخ «أجيبيني، وليأخذوا كلّ الهواء من رئتي، وكلّ الدماء تنبض في عروقها فليس هيّنًا يا وجعي المُزمن أن يسلبوا فرحي بك، وتظلّ مركبتي رهنَ العاصفة، لو كان نطق الوطن لأبان أنّ الهوى عنده يُساوي الكونَ والجبال والبحار، ولكان بارك لكلّ العاشقين عشقَهم، فلا حجة لك أو لهم عند الوطن».

كان ردّك على براكين غضبي تغريدةَ عصفورة مذعورة من رعود جانفي «اجلدني قدْرَ عذابك بي فقد كنت وطني».

فأجبتك: تعلمين يا عينَ القلب ونبضَه أنّي ما جلدت غيرَ نفسي مدّة ثلاثين عامًا بدموع عن الخلق أداريها، وليالٍ من الويل أعدّ أنجمها الآفلة سهادًا حين الصّقيع أتجرّع مرارتها ألمًا

ألمًا، ونزيفًا نزيفًا.

ملّني الحزن، وهربت مِن وحشتي الوحشة، وكاد الحيْن يسوقني إلى حياضه، ويستوفي بقيّة أنفاس كانت تشدّني إلى الحياة على أمل التّواصل معك.

انتظرت، وانتظرت عودةَ الرّاحلين بلا وداع، ونارٌ من الغيرة تفتت أحشائي وأنا أحدّث النفس كالمجنون «مَن قدر على محوي من قلبك، مَن استوطنه مِن بعدي وهزّ عروشي وعروقي التي ظننتها انغرست عميقًا، فلن يقتلعها سوى فأس الموت.. مَن يجلس عندك يروي ظمأ حبّه ويسرد حكايات عشقه بدلًا منّي؟

مَن غيري قد هامَ بابتسامتك السّاحرة حبًّا وحماسة، وعيناك يا لدمار روْحي من عينيك، لم أنسَ بريقهما المُتّقد، لقد كانتا لوحدهما عالمًا يلزمه اكتشاف.. كانتا خارطة عرفت كيف الولوج إلى مفاتيحها، وضيّعت بعدها طريق عودتي فظللتُ منذ أحببتك عالقًا فيهما وتقطّعت سبلي حتى غدوت تائهًا في وادٍ من الليل تحُدّ فجره جبال صمّ وآفاق أسمنتيّة.

أجيبيني لَمن كان شعرُك الفحميّ، وحضني الخاوي أين ذهبت به؟

كلّ المبرّرات تسقط سيّدتي أمامَ قانون حبٍّ تشكّل في عالمٍ آخر لم نختره وها أنّك قد وطأته على قداسته، وفررت هاربةً نحو المجهول

بعد أن كنت قلبك المفتوح وروحك النّشوى.

آه يا وجعَك على وجعي، آه من حبّنا المُشرّد، ألقت به السّماء ليرتطم بصخور الأرض وتذروه رياحٌ شعواء إلى أبعد مدى.

أتعلمين ريحانتي أنّك كبرت بعيدًا عنّي، فجعلت من مخيّلتي مرسمًا يضجّ بصورك، فها هنا صورتك وأنت ترفُلين في فستانك الأبيض بجوار آخر.. أتراك ذكرتني؟ وهل دمعت عيناك لقلبي النّازف مشيت عليه بكعبك المتعالي، هناك حيثما وطأت قلبي ظلّ طريحَ الخيبة يجرّه ذيلُ فستانك.

انظري دماءَه رغم الجراح نثرها وردًا أمامك، وبشغافه خطّ التهنئة، ومِن عروقه الجريحة أبدع إكليلًا أسطوريًّا حطّه تاجًا على رأسك، تلوّن مِن شراينه الحزينة وأنفاسه الباقية.

وتلك صورةٌ وأنت تستقبلين أوّل مولود تمنّيت أن أكون أباه، وأخرى لدموع سفحتها من جرح طالَك كنت لأكون طبيبه الشافي ومنديله الحاني.

ألبومٌ من ألفِ صورةٍ وصورة عبّأت ذاكرتي المتعبة بك.

كنت أقلّبها وأخاطبها مقبّلًا أوهامًا ظلّت تعودني بين النّبض والنبض، أرسم وجهك الدافئ، ألوّنه برهقي وأنفاسي، وأفتعل حوارات لا تنتهي إلّا باحتواء افتراضيّ، وأنت في حضني تقولين

«انتهت رحلتي الموهومة، خذني إليك فقد سئمت التّيه في هذا الوجود المرهق، لقد أكلتني خيباتي، فشلت بدونك يا روْحي، فكيف العود على البدء؟

كنت أخاتلُ النفس، وأصيّر الخيال واقعًا، فأستدرج ابتسامة، وأطرد خيبة، وأحضن حلمًا، فأنام وأنا أشقّ صدري على صمتي، وألعن بلاهتي في الغرام، حين ملأت نفسي ثقة بأنّك لن تطيري، وإن طرت فوقعتُك قريبة لمعبي.

لا تنسيْ أنّك مَن أيقظ فيّ تلك المشاعر، وأوقد نيرانها بعد أن ظلّت رهينة فوائض الأحزان وسنون من الحلّ والتّرحال بلا هويّة أو عنوان، لا شيء يخصني، وظللت أبحث عن حضنك هدرًا، وجدار يقيني الغربة واللا قرار.

لقد جلدت نفسي برحيلك الغجري، فما ازددت إلّا عشقك وقسوة أخرى حمّلتها تعبي.

فمَن أنت إن لم تكوني ساحرة؟ ومَن أنت إن لم تكوني جنيّة الخرافات؟

ومَن أنت إن لم تكوني عروسَ البحار ولوتس الهيام والعجز عن النسيان؟

سنون مرّت كالجبال الرّواسي توقّعت أن يردّك إليّ ريح الشمال، ومدّ بحاره وزبد عواصفه الشتويّة، كنت أظنّ أن تحتاجي دفئي يومًا

فتحنّين كالخُطّاف إلى الربيع.. انتظرت أنْ تنقشع مِن قلبك غشاوةُ الدجّال وتطلبين رجُلك.. أنا الذي ذوّبك عشقه، واحتفظت بكلّ حرفٍ خطّه في قاموس حياتك، أسأل كيف تنازلت عن اختيارك وعبق لقاءات يتيمة غير أنّها مسّت أدغال عواطفك مسًّا لطيفًا ظلّ وشمًا بربريًّا لا يُمحى، وحيرتي فيم فعل الآخر بوشمٍ ليس له؟

لقد صار فزعي أن يخترعوا «ليزرًا» مختصًّا في محْو الحبّ وآثاره لتصبح القلوب كلّها صفحات بيضاء قادرةً أن تعشق من جديد، أن تُحبّ وتُعيد كعدّاد سيارة أجرة يحتفي بكلّ وافد.. حينها سأسحق قلبي بين يدي كي أموتَ ميتة المحبّين الشّرفاء، ناضلوا العمر من أجل حبٍّ وحيد نزل حتمًا من السماء.

(4)

تصدير:

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل

أبو تمّام

العشيُّ

انقضّ عليّ العشيُّ في ذلك البيتِ الموحِش في مراسم جنائزيّة، فقد دُفنت بُهرة الشمس الباهتة خلف الهضاب تحت وابلٍ من الرعود وجيوشٍ غازية من ظلام.

واستفحل بي حزنٌ مطرّز بالفقد والوجع، وظلّت وحدها الذّكرى تسيح بي في الزوايا العاتمة، فينتشر وميضُها برقًا آخر في الرّوح، أستوقفه لألجَ في البواطن أتخفّى.

وإنْ نسيت فهل أنسى ريحانتي الباردة هناك، ليلة عثرت عليك على شاشة الحاسوب في إشعار أشخاص قد تعرفهم؟

لقد ظللت عقبَ تلك الليلة المجنونة أمامَ الحاسوب أهذي، والحيرة تُزلزل كياني «أيُعقل أن تكون صورتها تلك التي رأيت؟

ردّدت ألفَ مرّة «قد أعرفها» ولمَ الاحتمال؟ وهل يجدر بي التوقّع؟ قطعًا هي، قلبي جرّني إليها، ولن يخطئ.

الملامحُ البهيّة لا تذبل.. العينان العميقتان ظلّتا عميقتيْن، والابتسامة المرسومة على اللآلئ لم تنفرط.

وعاد الشكّ يخلخلني «أهي ريحانة روْحي؟ أهي مَن وافقت على طلب الصّداقة؟

لم أكنْ أدري ما الذي كان يقودني تلك الليلة نحو كمينٍ قاتل؟

تأكّدت الآن أنّ استعادةَ الذكرى حريقٌ ودخان ورمادٌ وهوس لا شفاء منه، وذاك أخطر كمينٍ يُنصب لعاشق، وقد ساقني ليلتَها إليه حبّ من الخيال وانتهى أمري.

ها نبضُ عمري قد بدأ العدّ بعد أن ثبت ثلاثين عامًا.. ها أنّ الدّماء قد أخذت سبيلها إلى عروقي، وعادت وظائفُ الرّوح تضجّ بنشوة الأمل.

كنت متلهّفًا لمعرفة فصول الحكاية المغمورة من ثلاثين سنة، وسرعان ما عبّرت لك عن شوقي، وغاب حذري، وجاءت رُدودك متلعثمة، ضبابيّة، وكنت كالمخنوق يبحث عن دفقة هواء.. أجيبيني؛ كتبت «يهمّني استقرارك، فأنا قد عجزت عن نسيانك.

في تلك الليلة، شُرّعت أمامي أبواب الجنّة وجميع مداخلها، فتلهّفت على اكتشافها كلّها في لمح البصر، نسيت خراب السنين وفعل الزّمن وقساوة الهجر.. نسيت نفسي الجريحة، طريحة الألم، ورُحت أُلملمها أبعثُ فيها الحياة، أبكي حينًا وأهلّل أخرى «ما أروع أن يُولد الإنسان من جديد. ولكن ماذا أفعل بعمري، وهل أُلغي عقودًا وعهودًا وأحمالًا على كتفي؟

ما ذنب مَن دار في فلكيْنا؟

فأنا المغدور مرّتين؛ واحدة لمّا مضى بك القدر قبل الأوان، وأخرى لمّا جاء بك بعد الأوان، وظللت فيك معلّقًا بين ظرفين زمنيّين، برزخان لا يلتقيان.

أجيبيني أيّتها العصفورة الساحرة، كنت قد أمسكتها يومًا من حقول مجرّدة الخضراء غير أنّها لم تُمهلني، ورفرفت بعيدًا..

دون سابق كره... تركت نيرانها تلتهم منّي الحياة.

«يقتربون منّا، ويضعون حبَّهم في قلوبنا، ثمّ يرحلون عنّا ويبقى جمرهم ليحرقنا».

وجاءني ردّك مذعورًا متوجّسًا من خلال قصيدة شاركتها على صفحتي تقول:

«كنْ صديقي
كم جميلًا لو بقينا أصدقاء
إنّ كلّ امرأة تحتاج إلى كفّ صديق
كنْ صديقي
أنا محتاجة جدًّا لميناء سلام
كنْ صديقي
ليس في الأمر انتقاص للرّجولة»

وهو كذلك يا نارًا في قلبي، سأكون صديقك.

أبعْدَ الحبّ والجنون والحلم المهْدور والذّكرى الملتهبة أصبح صديقًا، وضحكت ضحكة ملعونة ظننتُها ستذهب بصدري، وأنا أردّد «ليس في الأمر انتقاص للرّجولة.. ليس في الأمر انتقاص للرّجولة.

صرخت في الليل الحالك، وأنا أمارس تيهًا في الجوار «كيف للحبّ المجنون أن يتحوّل إلى صَداقة، لمَ كلّ هذا التعجيز والقهر؟

بلى يا ريحانة، سأوهمك بالصّداقة، وسأظلّ أحبّك سرًّا، فالحبّ سيّدتي ينشأ ويرتقي ويعظم ولا يتقهقر إلى الوراء، فالذي كان بينَنا ليس أحجيةَ أطفال أو نقشًا على وجه ماء، إنّه حبّ بحجْم السماء، فهل نقدر بجرّة قلمٍ على شطب السماء؟

اعذري يا عصفورتي تطفّلي على حياة بنيتِها بعيدًا عنّي، فأنا ما قدرت على النسيان فالذّكرى الحارقة انتصبت كبركانٍ في ذهني عجزت عن إطفائها.

اعْذريني ريحانتي، فما جئت أهدم عشًّا، ولا ألقي لومًا أو عتابًا، تدرين أنّ سكنك بين الرّمش والرّمش، وغذاءك كان مِن روحي ونبض القلب، فهل تُؤذي الروحُ روحَها؟!

جئت أسأل هل أحزنوكِ كي أجدَ لك فرحًا، وإن أبكوك أمسح دمعك، أو أكون لك عينًا أخرى تبكي معك.

وأنا أنبش أنقاضَ الزّمن بحثًا عنك، لم أكن أدري أنّي كنت أفكّك قنبلة من الأحزان والضّجر، وأبحر في كوكبٍ من الدّموع والضّياع.. ماذا فعلت بنا؟

انفلت ماردُ الدّمع، وكان البكاء لأيّام، وظلّ سيّدنا الشافي.

ابكي يا حبيبتي، وَدَعيني معك أبكي حبًّا لم نحفظ سحره،

فتسلّل تاركًا خلفه قلبيْن أجوفين دمعُهما من الدّماء.

ابكي، فلا شيء يشفي الجروح كالبكاء.

ابكي، فإنّنا ما فلحْنا إلّا في ثقافة البكاء، أو لم تُصبح غرضًا قائمًا في شعرنا «بكاء الأوطان ورثاء البلدان»

وما هي حتى انتفضت حينها تعقّبين في هلوسة:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان == فلا يغَرّ بطيب العيش إنسان

وأردفت في محاولة لدفن نحيبي، وصدّ هجمتي عليك «أيّها الرّنديّ العظيم لقد اختزلت مأساة الأجيال في بضع أبيات..

وتابعت «أتدري يا روْحي أنّ البكاء والرّثاء هما العاملان المُمكنان المتبقّيان في هذا الوطن العربي المترامي، وقد أصبح السقوط يستدعي السقوط!!.

الآن تحضرني قولةُ الفاتح طارق بن زياد حين خاطب جيشه بعد إحراق سفنهم وهو يردّد «العدوّ أمامكم والبحر وراءكم» حاثّا إيّاهم على الإقبال وعدم الإدبار.. أتعلم أنّ البحر- ومنذ سقوط غرناطة- صار شاهدًا على كلّ أحزاننا، كان العدوّ كما تصوّر بن زياد أمامنا فإذا به خلفنا وبين ظهرانينا أيضًا، لذلك ترى الشعوب تهرع إلى زوارق الموت وعرض البحر خوفًا من البطش وبحثًا عن اللّقمة.. لم تعدْ قادرة على تحديد عدوّها من صديقها، فالرّعب والموت المتوحّش خلطَ كلّ الأوراق في هذا الوطن الممتدّ، المخرّب.

أيّها البحر، كم من الآهات والاستغاثات قد دوّت على ظهر أمواجك.

أيّها البحر، ألم يرهقك دورُ الجسر الحامل لنكبات العرب من ضفّة إلى ضفّة؟

كيف لم يستفيدوا من خبراتك وقدرتك على الصّمود أمام الأنواء، ولا استنبطوا الحكمة من مدّك وجزرك أيّها البحر الهادئ المخاتل الجميل المرعب، الوفيّ الغادر، الحذر المغامر.. فيك الدرّ كامنٌ، وكتاب الحياة ينتظر التدبّر، غير أنّا صرنا عاجزين عن فكّ القيد والحرف».

وعدت دون مقدّمات ريحانة تنقلين عن الجدّة شوريّة أهوالَ ليلة الترحيل المؤذية، قلت: كان يتملّك جدّتي الذهول وهي تستعدّ لذكر التفاصيل، ثمّ تقول: «كان الشاطئ يعجّ بالسّراة خلسة، بأيديهم وعلى ظهورهم بعضُ الأغراض والذكرى، هرج ومرج، أطفال يصرخون وعجائز يتذمّرون في بكاءٍ، ورجال يتدافعون، ونسوةٌ يألمن لصغار داستهم الأرجل.. الكلّ يريد الفرار من جحيم قشتالة في سفينة للموت، ربّما.. ولكن ليس على يد جنود شياطين.

تقول جدّتي: وبينما كنّا في حشْرنا إذا المنادي قد رفع الصوت داعيًا إلى التوجّه للسفينة سباحة؛ فالبحر ضحلٌ وليس خطرًا، انْجوا بأنفسكم ولا تفكّروا بالأغراض، لقد اعترض عسس البحر القشتاليّون زوارق كنّا استأجرناها كي ننقلكم إلى السفينة الرّابضة في انتظاركم، وقد تمتدّ أياديهم إليكم ونترك لكم تصوّر النهايات.

وتعلّق جدّتي: لعلّهم كانوا يكذبون، ولم يستأجروا لنا زوارقَ أصلًا تخفيضًا لكلفة الترحيل، وقد أصبحت تجارة مجزية دفع فيها

الموريسكيّون كلّ ما ادّخروا... ومَن يأبه لروح الموريسكي!؟

المهمّ، اشتدّ الهرج.. وعمّت الحيرة.. وتداخلت الأصوات «وهذه المخطوطات، وهذه الفسائل، وهذا الماضي في كلّ ما نملك أين نلقي به؟ أين؟ وهؤلاء العجائز المرضى وأكبادنا الصغار أنلقي بهم للموْج؟

وذهبت حيرتهم أدراج الرّبد.

حينها كان مرافقُنا الصامت قد عاد رفقة شابّ فارع، يتكلّم لغة لم نفهمها، ولكن خمّنا أنّه سيكون وصيًّا علينا، وسأل بالإشارة إنْ كنّا نجيد السباحة فأومأنا أن قليلًا. فدفعنا إلى الماء وكان باردًا ثلجًا وأمواجًا منتفضة أخذت تغمر جسديْنا. وكان الشابّ خلفنا يحدو سبحنا.

تقول الجدّة في صوتٍ مبحوح «كنت خائفة يا ابنتي، وأصرخ، وكانت روديسة أكثر صلابة منّي أو هي كانت تدّعي ذلك حتى تبثّ جلدًا في نفسي المرعوبة، فلا أسقط عميقًا.

بين الشاطئ والسفينة أمتار حوّلتها الرّياح والظلمة والوجع إلى محيطٍ مائج بلا حدّ...

كنّا نغالب وحشَ الموت القابع في فمِ الأمواج بأيدٍ صغيرة وأنفس حزينة.. كان بعضهم قد جلب ألواحًا شكّل منها قوارب بدائيّة لنقل العجائز وبعض الأغراض فلا يبتلعها الموج الجائع.. وبعْدَ لأيّ أدركنا السفينة والناسُ مِن خلفنا وأمامنا في يوم حشرٍ على أمواج هائجة.. صراخٌ واستغاثات وصمت في قاع البحر أنهى حياةَ العجّز والكثير من الرّضع.

(5)

تصدير:

لا شيء أقسى على الرّوح من رائحة الأحلام وهي تتبخّر.

محمود درويش

الغروبُ

الغروب يوم فجيعتي بك مُختلف، هو الليلُ البهيم قبل الأوان، وثورة الجوّ في الخارج تكاد تقتلع الحيطانَ، وهدير الريح كأسرابٍ من الطائرات النفاثة المنفجرة، والرعد مليء بالوعيد يقصف وجهَ السماء الكئيب فتنهمرُ المدامع سيولًا لا يعترض طوفانها سوى أرضٍ مُفعمة بالصبر وإيمان بأنّ مُقارعة الأهوال تكون بالجلد.

وهولي أنا؟.. والعاصفة العمياء بداخلي تهزّ منّي بقيّة جسدٍ وفُتات روحٍ أتت عليه هذه المصيبة المُدمّرة.

ريحانتي رحلت دون أن تُكملي سردَ ما عشتِه بعيدًا عنّي، أسمعتني نزرًا منه ولم أرَ فيه ومضاتٍ مشرقة، ولا مِن سبب يُغري بالهجر، ما الذي أودى بك إلى جحيم ألهبك بدلَ أن تُطفئيه؟

جنّتك كنت، وغابة من الحلم والنسيان كان حضني وكانتا عينيّ، ودربٌ واضح يُرجعنا إلى بيتنا المنذور هناك عند جبل الزّعتر.

كيف سمحت لهم أنْ يُدمّروا ابتسامتك، وأن يئدوا طفولة الأحلام والجموح الساحر لديك؟

كانت سياطُ أسئلتي تجلدك في ليلةٍ من ليالي الاسترداد، وكنت حذوي تئنّين دون حراك.. جسدك النحيل وعيناك العسليّتان

السّاحرتان.. أين النور فيهما وإكسير الحياة؟ كنت أردّد مقهورًا..

«غابتا هشيم هُما قبل الحريق، وأضحتا أكذوبة بيّنة الملامح»

أذكرُ يومَ التقيتك بعد ثلاثين عامًا أنّه قد انتابت جسدي أشواكٌ جحيميّة فغزَتني الحمّى، شُلّت يدٌ كنت مددتُها كيْ أحضنك جمدت فيّ الدّماء، وشرع النحيب يُفتّت أضلعي، وصورة يديْ رجلٍ آخر قد طوّقتك تكسرني شظايا، وتلقي بي إلى بحرٍ من المرارة والعجز.

ريحانتي، رُوحي المفارقة، وأخيرًا ألقيت عصاك ورسَتْ مركبتك، ردّتك إليّ رياح الشمال والأنواء، بعد أن كان بيني وبينك دمارٌ وجبال وأنهرٌ من نار، فصلنا عمرٌ من الألم والأحزان، كيف نئدُ ذلك وهل يُشفي البكاء؟

أجيبيني صرختُ فيكِ فهجْرك مثل صمتك الآن مؤامرة. أطفئي النيران، التهمت كلّ حياتنا.

اكتفتْ عيناك يومها بالمطر، وأنت تُربتين على كتفي بلهفة، أمّ أعادوا ولدها من حبل الإعدام قبل التنفيذ، كنت تودّين لو ينشقّ قلبي فتُعاينين نُدوبَه، أو تُبسط أمامك مشاعري تنْبُشين فيها عن أثرٍ لك.

اطمئنّي معذّبتي، لقد كنت أوّل الغزاة وآخرَهم، لم تتركي في القلب بصيصَ انتفاضة أو رغبة في التحرّر من سلطان هواك، لقد كبّل الفؤاد بالأصفاد، وأحرقته الغيرة وأشواكها.

وعاد الصمتُ يُلجم نفسي، جرّدني قهرُ السنين من ألق العمر.

لقد ساقوني إلى امرأة زوجة، وأنا مقيّد القلب، مهدورُ العاطفة، سفيهُ المشاعر، وهاجسي الأوحدُ أن أثبت عكسَ ما أصبحت تتناقله الألسنُ الخبيثة، ونظرات مشحونة بالعطف والاستهزاء تُحاصرني.

تناهى إلى سمعي ذاتَ ليلة صيفيّة صوت «خالي» نصر المثلوثي وهو منزعج قائلًا «فليصارحنا بالحقيقة.. أو ليثبت ما به يكون رجلًا، لم نعدْ نحتمل هذه الترّهات.

أصابني الجنون والغثيان، ونبتت جمرةٌ مكان الفؤاد، فعمّت الحرائق كلّ الجسد، وانتصبت أسئلة الجحيم مجدّدًا في دماغي «وأنت أين أضعك؟ وكيف لي تجاهل غزوك، أو إنكار عينيك اللّتين سدّتَا كلّ منافذ النّجدة، وصوتك الذي ما انْفكّ يأتيني مع كلّ هبّة نسيم وترنيمةِ طير..

بين سندان ألسنة عائلةٍ تنحدرُ من أعماق ريف جنوبيّ يعنيه جدًّا أمر الرّجولة والفحولة ومطرقة حبّ قتلني وانسحب في خفّة طيف.

جعلت أتلظّى.. أقلّب اللسان في عجزٍ مُطلق، وماذا عليّ أن أكون؟

أأقول لهم «أنا بانتظار حبّ يأتي ولا يأتي؟

أأصارحُهم بالدّمار الذي يجتاحني منذ تركتني، وأنْ لا امرأة يمكنها أن تكون حبيبتي مثلك.

وفي غمرة نيراني ووجعي، ساقوني إلى امرأة زوجة، وبنوْا لي عشًّا لم تكن بقلبي مفاتيحُه، ولا اخترت قشّه، فقد غدوت بعدَك

قلعة بدائيّة بلا منفذ.

أنا روْحك المتْروك، أنا الملقى في عوالم النسيان، وأنت هناك، أين؟ لست أدري رفقة من لست أحبّ.

بعد صمتٍ مكابر، رفعت إليّ عينين مرهقتين، وأنت تتوسّلين «خذني إليك أحتاج رحلة أخرى في البكاء، أريد شطبَ الذّاكرة ومحْوَ كلّ الماضي وشعاراته الجوفاء، فبيْن الحلم والواقع مساحةٌ ما بين الحقيقة والخديعة، وما بين والحياة والموت.

وكانت أشواكُ الماضي مازالت تُلهب جسدي وخزًا لا يُحتمل غير أنّ لهفتي قد تجاوزت عتبي وأشواقي إليك فاقت أشواك هجْرك فضمَمْتك وانتابني كما الإغماء أو هي رجمة من السّماء أعادت إليّ السنين الخوالي والحنين.

جاءني إثْرها صوتك مهزوزًا «سامحني روْحي وغرقت عيناك في المطر.

كرّرتها ألفَ مرّة، وانهرت وأنت تُردّدين «غشيمة كنتُ فررت منْك به فكيف أفرّ الآن منه إليك؟»

سؤال العجز داهمَ رأسي يا روحي، وألقاني في سُهادٍ مرير، طلّقت النّوم وتآكلتني الهلاوس، أأكون مجنونة؟

أهوَ الخبل شرعَ يرمي عروقه في كياني، لم أكنْ يومًا بهذا الاضطراب أو الهذيان؟

حملت يا روْحي لأعوام نصيبي الضّحل من الأفق، وتآزرت على رأسي الأرزاء، وظللت واقفة كشجرِ سرو تهزّها الدنيا، ولا تنحني أو تشكو، وحده الصّمت والنحت على الورق ملأ عالمي، فأيّ تحوّل هائل قد حلّ بي بعد ثلاثين سنة؟

أتدري أنّي صرتُ عصفورة يتيمة ترتجفُ في عين عاصفة هوجاء.. فماذا فعلت بي يا روْحي؟

وأنت تقتحم عالمي الافتراضي كنت قد سيّجته من الحروف والدّموع، وآهات ليليّة لا تنتهي، عالم استوطنتْه الوحشة ونبت على جنباته ندمٌ شائك استوفى بقايا فرحٍ من ذاك الزّمن ومن ذاك المكان.

وحللت بي يا روْحي في يومٍ شاتٍ، صقيعُه يهزّ كياني المتداعي وروحي اللاجئة في السنين البعيدة.

حللت فكانت الزّوابع والعواصف والأعاصير والشموس الدافئة والأقمار المضيئة وروائح الرّبيع العبقة قد حلّت معك.

ورحتُ أخاطب كلّ ما حولي، وفيّ وأنا أصرخ فرحًا وألمًا «أمهليني أيّتها السنين العجاف ولياليَ الدّموع والوجع والأحزان النّابتة في أعماقي، أمْهليني حتّى أستوعب الضوء وأحتوي الدفء، وأسخر من ذاك الصّقيع.

أمْهليني حتّى تجفّ عُيون الدّموع، وتجفّ الخيبات خيبةً خيبة،

ويحترق ذاك الحنين فينبتُ من رماده فرحُ اللقاء وسنابلُ الخصب وزهر النسيان ونرجس الوديان وخضرة السّماء وليلك البحار وضمّادات الأحزان»

أمْهليني فليسَ من البطولة أن تنسحبي قبل أن تُعيدَ أيّامي الباقية انتشارَها، وتُسلّمين لي مفاتيحَ زنازين روحي وأسرار حربٍ مدمّرة أقمتها فوق أرضي بهتانًا.. لا تنسحبي وفيك حقد «نيرون» فأنا مثل روما سأنتفضُ بعد حين من رمادِ حرائقي، وأحلّق في سماء مفتوحة، وقد جئت يا روْحي تُقيم صرحَ الرّوح وتبني في عينيّ عالمًا من النور بعد الظلام».

فقد أظلمت عيناي لفقدك، ولا أدري كيف خططت آخرَ رسائلي إليك، واسودّت الحياة نهائيًّا بفقد الولدين.

ولم يكنِ النّور يتسلّل إلى عينيّ إلّا حين أقفُ على قبريْ فلذتيْ..

التحفت بسوادٍ يليق بي، وأسندت ظهري إلى وجعٍ لا ينتهي، وغمّست الروح في قصائد الكمدِ والرثاء، لا أستردّها إلّا حين تصرعني غيبوبة ما.

وضعتِ يا ريحانتي رأسَك على ركبتي مثل طفل ضيّع والديه، ودعوتني أن أكفّ عن الكلام، قلت: الصمْت.. الصمْت؛ فالروحُ تحتاجه كي تتعافى، فقط أنفاسُك هي الدّواء، اتْركني يا روْحي،

فالتي بين يديك الآن بقايا حطامٍ وحزمة صدمات لن تستوعب إلّا نزر حنان ولمسة وفاء، ولا تُكثر فتُودي بها لك بقيّة عمري.. اجلده لو هانَ كما تشاء.

بكيت حينها آلامنا وخفت أن تضيعي.. أن تتسرّبي من بين أصابعي كقطرة ماء في صحراء قاتلة، ضممتُ رأسك بين يديْ، وتركتك في نومٍ هو الأنين، بلغ وجعي مداه، وأنا أنظر إليك جثّة لم تُفارقها الأنفاس، جسدٌ نحيل، وعينان غائرتان تبحثان لهما عن مخبأ أبديّ، لفّكّ الذّبول وهجرك ألق الحياة.

كان النّحيب قد قهرني، بحثت عبثًا عن بقايا صمودٍ أسندك إليها، واكتفيت بغسل شعرك بالدّموع، لم أحتمل أنينك الآتي من الفناء، وأنت تتوسّلين «كفّ دموعك عنّي الليلة يا روْحي، فأنا أحتاج إلى استيعابِ الزّمن، وترتيب فصول الألم وبدايات السّرد.. هات كراريسَك، ودوّن فليس مَن قرأ كمَن اكتوى، ورحت تنثرين جُملًا غير مكتملة، أمثالًا وحكمًا وبعض الأشعار في الحبّ والرّثاء، وزُهديات أبي العتاهية المودّعة الحزينة، وأنا أمسح وجهَك بماء الزّهر.. أهدّئ من روْعك، أخفّض منسوب اشتعالك، وكنت مذعورًا أن تكون أماراتُ النهاية قد بدأت تتكشّف.

ظللتُ جزعًا أتوسّل ألّا تنسحبي بعد أنْ ظفرت بك في وقتٍ

قاتل، وقبل أن أشفى من قهر الزمن.

لقد قلت لي ليلتها، وكنت بين يقظةٍ وهذيان، والحمّى تنغرس في جسدك المتداعي «سرْت يا روْحي له بعد أن قبِلَ بكلّ شروطي، وأهمّها أن يطمر قلبي داخل وادٍ قطبيّ دون أن يسأل لَمن كان وقد فعل، واكتفى بالقول «لو تركت قلبك لي لسعدت بحبّك..»

بعد دفْنِ قلبي يا روْحي مسحت آخرَ دمعة، وقرّرت وأدَ الأنثى فيّ، وانغمست في مُرّ الأيّام وكدحها معالمُ طريقي واضحة وأهدافي مرسومة.

وصمتّ فجأة وانتابتك رعشاتٌ من الشيطان تحوّل إثرها جسدُك إلى مروحة لا تهدأ.. رحت أضمّك إلى صدري، أرسم قبلةً هنا، وأخرى على جبينك، أدعوك للصّمت والطمأنينة فأنت معي.. كلّه لم يجد.

وتابعت بعْدَ لأيّ ضجرة بي «لا تكنْ يا روْحي سجنًا يئدُ ثوراتي، احتملني فإنّي راحلة ولكنْ ليس قبل أن أُطلعك على ما فعلوا بي، وخيبة انتظاراتي، وكنت أوّلها يا روْحي فلا تهرب من قصاصي، أنا حسابك.

كتمت حينها غيظي، وأنا أقول في سرّي «عجبًا، أليس أنت مَن بادر بالرّحيل؟»

ورغمَ ليلتك الليلاء تلك، قرأت أفكاري واستشعرت غضبي

المكبوت، فأردفت «كنت أُنثاك، والقتالُ من أجل الأنثى غريزة بثّتها الطبيعةُ لدى الحيوان قبل الإنسان، فكيف تركت أنثاك وحيدة وغريبة بين قطيعٍ من الذئاب، لبسوا قفازاتِ الحقيقة والطّهر والمثل النورانيّة.. لم أرَ النّور فيها بعد أنْ أظلمت عيناي لفقدك.

فقلت لك: عمّن تتحدّثين؟

فانتفضت غضْبَى وأنت تقولين: عن أولئك الذي أرادوا تحنيطَ الإنسان في قوالب جاهزة، أيعقل أنْ نخضع النّفس البشريّة إلى قراءةٍ وحيدة!؟ وإذًا أين الحكمة من تنويع الخالق؟ وكيف نجاري الوعي التاريخي الكوني؟ وأين نضع أهمّ التحوّلات التي قادها الإنسان؟

قاطعتك قائلًا: إنْ هي إلّا مشاريع ورؤًى فلسفيّة وعقائديّة تتدافع لتثبيت أسسها، أليس هذا من سنن الكون؟

فقلت لي: لست ضدّ حتميّة الصراع، ولكنّي أمقت الدّغمائيّة، ألا ترى أنّهم قد أدخلونا في أتونِ الصّراع الأيديولوجي في سعْيهم المحموم للاستفادة من السلطة رغم عجزهم على تجسيد أيديولوجيا الفكر اليساري مثلًا في برنامج سياسي ينسجم مع متطلبات المجتمع وهويته ومراحله التاريخيّة؟

وهؤلاء الذين لبسوا عباءةَ التدين الأسود المحنّط، ساعون إلى تكبيل الفكْر البشري وحرمانه من مكتسبات نضالاته.. كيف

نخلص من العقول الحجريّة؟

بدوتِ ليلتها تعيسة مشوّشة المشاعر، أكملت حديثك في ألمٍ واضح «لقد فاقت يا روْحي خيبتي حجم هذه السّماء تراني انْدحر يومًا بعد يوم لألعق الجراحات.. لقد فشلنا كلّنا في بناء علاقةِ حبّ حقيقيّ ودائمة مع هذا الوطن.

استفزّني حزنك، ورمت تحويل وجهة اهتماماتك، فسألت «ألم يعنِك أمرنا؟

فقلت لي في حزن «إنّ الشعوب التي تفشل في تحديد أهدافها الكبرى لن تنجح فيما سواها وقصّة حبّنا الضّائع هي جزءٌ من ضياع شامل ظلّ يُدمّر أحلامنا، فحين يولد الجيل ويُقبر ويليه آخر، ويفنى، ونظلّ في صراع هدّام بين يمينٍ ويسار، والوطن رهينة ونحن فيه تائهون عن الحبّ والأمن والشعور حتى بالانتماء.. لا تسألني بعدها عن العواطف فهي من النّبل، حتى أنّها لا تحيى مع كلّ هذا الهراء.

قلت وأنا أبتلعُ خيبتي: أليس الصراعُ أساسَ كلّ تطوّر؟ الطبيعة تأبى الجمود والتماهي.

فأجبتني: الصراع ضرورةٌ لتواصل البقاء، ولكن ما يؤلمني هو غياب الحسّ النقدي والمراجعات والاعتراف بالتقصير أو الفشل، فهل اعترف اليسار واليمين وكلّ مستعبد بالأيديولوجيا مثلًا

بالفشل المتأتّي من محاولات عزل المجتمع عن جذوره وهويّته في محاولة لفرض أيديولوجيا لا تتلاءم مع الواقع المحلّي، وهذا لعمري ما يُغذي حالة الانشطار والتشظّي المتواصلة والتناقضات الصارخة بين الخطابات والممارسات.

قلت لك: هل تنفين دورَ اليسار في خلق حراكٍ فكريّ ونضاليّ، ووضع المسلّمات موضع السّؤال؟

قلت: تعلم يا روحي أنّي لا أحابي، وأطلق سهامي على كلّ شيء يتحرّك في غير مجاله.. لا أكره أحدًا، ما يؤلمني هو الجمود والإقصاء.

وعمّك صمت ظننته أوْدى بك.

اجتهدت حينها أنْ أبحث عن خيطٍ ناظم لأفكارك فعجزت، قلت لك «ستظلّين غامضة يا ريحانة لآخرِ رمقٍ أكنت معي أم ضدّي؟ حتّى اللحظة لم أتبيّن مشاعرك نحوي ولا أيّ سياحة إيديولوجيّة تركبين، أهو اليمين أم اليسار مركبك؟

فأجبتني بضحكةٍ هستيريّة، وركبك جنونٌ لم أقوَ على كبحه، وقد صار جسدك كتلةً من الغضب، ويدك تدفعني بعيدًا وأنت تُزمجرين «عدت لبؤة، خذْ خيبتك وارحلْ علّك يومًا تتبيّن مشاعري وقناعاتي أو انتماءاتي.. أعدك أنْ أجتثّ ذاك القلب من واده القطبيّ.. أين دفنته في الماضي، وأنحره نحرًا على هضبة ثلجية لا تذوب..

لست له أيضًا يا روْحي وبكيت كما لم يبكِ أحد.

تعمّقت فيّ تلك العشيّة حيرتي، وازداد وجعي وأنت أمامي ضامرة منتفضة تأبيْن الضعف، وفكرك متوقّد ومعبّأ بالحقائق والرّموز، كلّك ثورةٌ وغبن، تبكين حياةً غاب قلبها. اشتقت إلى رجلك، احتجت أنفاسه المطمئنة، واكتفيت في غيابه بالزّمهرير وليل الشتاء الطويل، هذا جوهر المسألة.

فـرددت، والغضب سيّدك «أدعـوك لتفكيك شفرتي قبل الانفجار، فما عدت إليك وهنا، كلّ همّي أن أعيدَ النّبض لقلبينا، ونبحث فيهما عن قليلٍ من الربيع في زمن الدّمار هذا و«الدّواعش» والعصابات البوليسيّة تترك القتلة، وترقب فراشة وصلٍ بين محبّيْن.

ذا زمنُ الشيوخ الخَرِفة تترنّح على الكراسي الرّئاسيّة والعمائم العربيّة مدلّاة تلعق الذلّ واللذّات، وتهب للغزاة جسدَ الأمة العربية.

أجبتك حينها حازمًا كما لم أكن أبدًا: سئمت هذا الخطاب الذي دمّر وجودي وعبث بكلّ مشاعري، افصلي قلبيْنا عن السّاسة والسياسة، أتذكرين رسالتك القاتلة جاءت تُخبرني «أنّه بيني وبينك وطن»

أكنت من المرّيخ نازلًا أم طلعت عليك من قلب الغيوم؟ ليس هيّنًا أن يُستثنى بشر من حبّ الوطن، ويصير هذا الحبّ حكرًا يُوزّع

على الهويّة والانتماء، فذاك ما يسقط الأوطان، حتى الطغاة أحبّوا بطريقتهم «الوطن»، وقد ظلّ أبدًا حمّالة حبّ ومِحَن.

لا أدري إنْ كنت سمعت كلامي كلّه، وأنت تطمرين رأسَك بين يديك وتهربين إلى الخدر.

حمّلتُ جسدك المرتجف كمّا من الأغطية، وانسللت حزينًا أبكي وهنَك وفوضى مشاعرك.

لم تمرّ تلك الليلة بسلام إذ سرعان ما عاودك الهذيان، وفتحت عينيك مرعوبة، جلست حذْوك وحضنتك وقبّلت جبينك ودعوتك إلى الاستسلام للرّاحة، وأنا أردّد إنّي مرفؤك الأزلي وأحضاني دغلٌ لأحلامك، خذي من أنفاسي ما يستردّ لهفتك عليّ، خذي من دمي ميلادَ رعشات أخَر، كانت تُذوّب حولنا كلّ الأبعاد حين التلاقي.

فأنت يا ريحانتي مرهقة جدًّا، ويلزمك شوق مخلّص كيْ تهنأ الأرواح في مكامنها.

فانزحت بي في شرودِ اليائس، وأنت تسألين «كم العمر الآن؟

فاجأني السؤال، وقلت متجاوزًا: تقصدين السّاعة، فالحبّ يا قلبي قاهر للزّمان؟

فحدجتني بنظرةِ غضبى وأنت تقولين «أعي ما أقول يا روحي.. كمِ العمر الآن؟ ألا تعلم أنّ الأعمار تُقاس بالسعادة وراحة الإنسان

بها!! أعني الراحة النفسيّة، وعليه فأنا بنت لحظتي هذه، فعاملني يا روْحي على قدْر سعادتي باللقاء ولا تتكلّف، أعلم أنّ وضعي النفسي ظلّ ثلاثين عامًا مهزوزًا، ولكنّي لست مخبولة بعد، إنْ هو إلّا فرح اللقاء ووجيعة التحوّل التي طرأت على جسديْنا، فليس هيّنًا أن نرى بعضيْنا بعد هذه العقود، ونحافظ على برودة أعصابنا، ما حلّ بنا أسطورةٌ يعجز الخيال- فضلًا عن الحقيقة- أن يستوعبها.

لا تتظاهر يا روْحي بأنّ الحاصل أمرٌ طبيعيّ، أو أنعتك بالكذّاب وأنت لست كذلك، فليُجنّ جنونك مثلي، اهْذ، ابْك، كسّر كلّ هذه الكراسي أمامك، فجّر كبت القهر الذي عشّش فيك من ثلاثين عامًا، وبدّل القبلة، اصرخ بي «ماذا فعلت بنا؟ فأنا قد أصبت يا روْحي بغباء ثوريّ قسم ظهرَ حبّنا، وفررت، أريد تغيير وجه العالم وكأنّك كنت حاجزًا ولم تكن حبيبي ومُنَى خاطري وغذاءَ روحي.

لم أكنْ أعِ أنّ القلوب الخاوية لن تُفلح، وأنّ عذاب الرّوح سيطفو على ما سواه، وأنّ الإيمان يقوى عودُه بالحبّ، وتسّاقط أوراقه بالفراغ.

هزّني وصحّ بي «اعترفي أنّ غيابي ظلّ نقصًا لم يُسدّ، وأنّ امرأة من غير حبّ تظلّ بائسة لو أسكنوها قصرَ الحمراء لو ملّكوها نصف الكرة الأرضيّة، وأعطوْها النصف الآخر هديّة.

فقطعت هيْجتك، وأنا أشدّ على يديك المرتعشتين «وحدك انجررت إلى محاكمة وضع سابق بوعيٍ لاحق أين كان؟

سكنت فجأة، وعلتك جديّة لا قِبَل لي بها، وانغرست عيناك فيّ انْغراس السيف في غمده، ثمّ بادرتني قائلة: اصغِ يا روْحي إلى قولي هذا، قد يروي ظمأ السؤال لديك، ولا تقف عند وجع الرّحيل وقطع شريان ما بيننا، حسبي أن تتعلّم ولو كنت في الستّين، فالآخر مدرستنا منها ننهل ونُشفى.

لقد انفلتُّ من أسْرك العذب لأجدني في عذاب أسْره، كنت حمّلت نفسي تحدّيًا بحجم جبل، وظلّ برغم الزلزال قائمًا، ولم أعبأ بقيد الجذب إلى اليأس، وغنمت إرث طفولتي المنسابة نحو الفرح والنّحت في الحياة، عادني أملُ الماضي ورهانات التفوّق كلّلتْ عنفواني ووطّنتْ النفس على أنّ خسارة حبّ لا تعني استسلامًا فيما بقي من المعارك.

كان الماضي بما بناه في نفسي من قدراتٍ على الصّبر والعمل والطّموح؛ يدعمني، فكنت أراني الطفلةَ المتّقدة تجمع بين التفوّق الدراسي واللّهو حتّى الشّيطنة لا تُردّها الشموس الكاوية عن متابعةِ عصافير الحقل، وكشف أعشاشها المستورة على الأشجار وداخل الأجمات، كنت أُقهرُ لو أفلحت واحدة وغيّبت عنّي عشّها.. طلعة

كنت لا تحصل حادثة دون أنْ أعلم منطلقها ومآلها، كلّ القطط اللئيمة تدلّت من أعالي أشجار السرو؛ حيث ربطتُ أذيالها فلا تعود لأكل الفراخ يومًا.

وكم تلهّيت عند هروبِ حمار الجيران، يصير وحشًا ضاريًا عند أتان أبي، يصيحون بي «ادخلي»، وأظلّ مسمّرة أتابع غريزةَ الحبّ في أشرس تجلّياتها، ويهبّ المزارعون بآلاتهم يهْوون بها على الحمار فيزداد قربًا من أنثاه، وبين الشهيق والنهيق ترتسم في ذهني صورُ حبّ الحياة والانتحار من أجل البقاء.

وكم استرقت السّمع لحكايات الصبايا اللاتي يكبرنني، كنّ يروين قصصَ عشقهنّ المخفيّ، وكم ساومت لنقل رسالةٍ أو برتقالة أو باقة زهرٍ برّي من وإلى زمن اللّقاءات الممنوعة والحبّ الجميل فيه يكتفي العاشقان بباقةٍ من شقائق النّعمان وزهر الأقحوان حبًّا وغيرة وابتسامة عجْلى من وراء الكرم والزيتون تجعل العاشق يهيمُ بالقمر ويغازل الشمس وينام مدثّرًا بالأحلام الورديّة.

يمرّ يومي وأنا أرتعُ بين الخضرة والسواقي، حتّى إذا جاء المساء وقبل رجوع أبي أجدني منكبّة أنجزُ نصًّا، أو أحفظ آيات، فلا يهلّ حتى أكونَ قُدوة البنات فتكون قطع الحلوى من نصيبي.. اشتقت إلى حلواك أبي وقطع السكّر أخبّئها للسهر، وباقات زهر بريّ أنثرها

في وجْه الحياة علّها تلين.

اشتقت نظرات أختي المقهورة ترشقني وقد ظلّت اليوم كلّه تسقي الشجر وترفع أوساخ القنّ، وتعدّ الحليب للخراف الصغيرة.. لها من المهام ما لا يُسند لي.

كثيرًا ما استمعتُ إلى أبي وهو يخاطب أمي في خيلاء «ابنتك رفعت رأسي، لقد تميّزت في دراستها، هي في المرتبة الأولى، هكذا قال لي معلّمها، أريدها أن تصبح «جنيورة فلاحة يا أمّ الزين»..

فينتفش ريشي كديكٍ روميّ، وتشتدّ أنشطتي في الحقل، وعند أكوام القشّ وبين السّواقي أطـاردُ الفراشات وأبني للحشرات بيتًا صغيرًا، أجمع فيه كلّ الأصناف فتتقاتل وتتآكل، وأظلّ أراقب النتائج.

مِن ذاك الانطلاق، وذاك النجاح، وذاك الحبّ والطيبة، أتيت ولا نيّة عندي في الانقلاب والتردّي في مهاوي الذلّة وصمت الجبناء، لقد أغروْني بشعارات طفولتي، واتّساع حقلنا وسماء بحرنا، وماءُ بئرنا ينساب في السّواقي كسيفٍ فوق الحلل الخضر.. ذاك عالمي ولنْ أتّكئ إلى سواه، ولن أفرّط في قطرة منه.

قالوا سيسرقون طفولتك ووطنك، ويغتصبون ذكرياتك، وأمل كلّ أبنائنا، فهل نستكين؟ قالوا أوطاننا لم تتحرّر برغم إعلان ذلك، أين قمْحنا وملْحنا؟ أين ماء وجهنا؟ فهل نستكين؟

وكنتِ يا روْحي الفاتورة الباهظة وسدّدت.. انسلخت منك إليهم بحثًا عن طفولتي في الوطن، وأغرتني الشّعارات الطافحة كرامة، ولم أعِ أنّ الطفولة تظلّ أبدًا في يُتم حين تُجرّد من الحبّ وتتيه بين ردْهات الزّمن الرّديء، فتستحيل ضبابًا ورمادًا ووخزًا مؤذيًا في الذّاكرة يُصادر الفرح.

ثمّ أخذك الصمتُ إلى عالمه، كنت أدري أنّه الألم في ذروته.

ريحانتي كنت سألتني عن «كمِ العمر الآن؟

وأنا تحرقني حيرةٌ أخرى عن «كمِ الوجع الآن؟

أفلا يُقاس العمرُ بوجعِه إن كانت السّعادة مجرّد طيف، والوجع هولُ جرح نازفٍ لن يلتئم إلّا بتُراب القبر؟

أجبتني حينها دونَ أن تأخذي وقتًا كافيًا للتفكّر.

وجعٌ لا بدّ أن نستعدّ له فليس هيّنًا التعامل مع عواطف ولدت ونضجت في الجراحات، عدا أنّ أصعب الأمور مباديها، فكيف إذا كانت هذه البدايات ستقتحمُ عالم نصفين شتيتين يستعدّان للنهايات؟

حيرتُك مشروعةٌ فليس أصعب من إعادة البناء بعد أنْ طال الهدم أعمق ما فينا، فأنا يا روْحي يلزمني تأهيلُ يعيد إليّ الثقة في الإنسان، وقد وقفت على أمراض مدمّرة في النّفوس قبْل الأبدان، مستشرية عند فئةٍ تعتقد أنّها نخبة الوطن من الساسة والمثقفين.

فقلت لك: لعلّك الآن تجدينَ لهـروبي من عالم النّخب والسياسة وتجاذباتها أعذارًا فقد وعيت باكرًا أنّ ظاهرة إقصاءِ الآخر وتشويهه وتجريمه لم تكنْ ممارسة خاصة بأصحاب السّلطة في هذه «الجملكيّات»، بل نراها في الأحزاب وقوى «التحرّر» المنادية بالديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة وتلك الساعية إلى الرّجوع إلى الماضي للاستنارة بنوره وقيمه الكونيّة الشاملة.

ألا تذكرين منوبة 1982 وأصحاب المدّ الثوري المناضل، والذين لم يروْا لوجودهم معنى إلّا في إقصاء الرّجعيّة، وفريق سلاحُه تكفير الثائرين واتّهامهم بتبنّي العلمانيّة، فهل ترين ريحانة تناقضًا بين العلمانيّة المتزنة وروح الأديان؟

فقلت ساخرة: لقد تجاهلوا استشراءَ الفساد والظلم وتغوّل الحزب الواحد رغم ترنّح الزعيم، وانغمسوا في مثل هذا الجدل العقيم.. أضعفونا.. أخّرونا.

ماذا لو اقتنعَ الجميع أنّ الأديان أبدًا يدنّسها التّوظيف، وأنّ التحنيط يكون للموتى.

قلت لك: لقد لامست الدّاء صميمه، ومِن أجل ما ذكرت ظلّ الوطن في تأخّر تاريخي وبقايا الإقطاع والعروشيّة وكلّ مخلّفات القرون الوسطى.. لم يحسموا في المسائل الجوهريّة كما فعلتْ أوروبا

بعد حروبها الأهليّة الدامية، اعلم يا روحي أنّ السياسة إذا وظّفت الدّين دنّسته، وأنّ محاولات نفي الدّين من حياة المجتمعات يشعلُ الفتن، فما الفتن سوى حرْب قراءات.

فأردفت مؤكّدة: الأديان شكّلتها المجتمعاتُ البدائيّة، وأبدعت لها طقوسًا على رأي علماء الأنثروبولوجيا، فماذا ترى؟

أجبتك: إنْ هي إلّا واحدةٌ من القراءات ترى في العقائد مجرّد تحوّلات وفق قواعد، وأن لا فرق أنثروبولوجيًّا بين العقائد والسّحر والكهانة والأساطير، كلّها أشكال اجتماعيّة يدفعها الخوفُ من العقاب والأمل في الثواب فتتشكّل أماكن العبادة ومفهوم القربان.

قلت لي: كيف تفسّر عودةَ الديني، وأنّ الدين لم يعدْ أفيون الشعوب، بل أصبح «فيتامينها» كما يقول «ريجيس دوبري».

أجبتك حينها: في عبارة «عودة الديني» مكرٌ يوحي بأنّ الدين قد اختفى، وهو في الحقيقة لم ينفصلْ عن مجالات الحياة السياسيّة والثقافيّة والمجتمع، بل الآن يقع التبشير بمستقبل الدين العاقل البعيد عن الخرافة، كما يقول «هابر ماس».

فقلت لي واثقة: أنت تدري يا روحي أنّ إيماني بلا حدود، وأعتقد أنّ الحداثة وما بعدها قد حاولت إزالةَ كلّ أشكال الدّين ودلالاته الإيمانيّة غير أنّ سؤالَ الإيمان انبثق مجدّدًا في ظلّ اللا معنى

والعبثيّة، ولكنّي أؤمن بدينٍ إنساني بلا لون.

أعجبك رغمَ الإرهاق انغماسنا في الجدل، فاحتويتك ومارست عليك قمعًا رومانسيًّا.. ضممتك.. وأسكتّ شفتيك، فلا تذكران نُكب النُّخب، وعمّنا ليلتها دفء لذيذٌ مرتبك؛ من الماضي عنفوانه، ومن المستقبل فرصته الأخيرة، ومن الحبّ المجنون فيضه.

(6)

تصدير:

كلّ فناء لا يُعطي بقاءً لا يُعوّل عليه...

ابن عربي

الغسقُ

ليلةٌ كالدّهر موجِعة لم تنجلِ.. فضحت لواعج السّماء أسرارَ القرية المستجيرة بالظلام، وقد حاصرتها الأوديةُ الهادرة مِن كلّ صوب، فغدت رهينةَ السّيول بلا حول.. البيوت عاتمةٌ، والأزقّة الضيّقة تسبح في المياه.

تُرى.. هل فاضت المياهُ على جنبات قبرك.. حفروه.. هيّئوا قصرَ عمرك الثاني، فلن تسألي عن سنينِه ولا عن وجعِه.

كم تمنّيت لو أنّ ولديْك قد دُفنا في مقبرةِ القرية، أين ستدفنين، وليس في المدينة كما أصرّ على ذلك أبوهما، وجاراه الجميع رأفةً بما أصبح عليه من عجز، مثْلما ذكرت لي في لقاءاتنا الأولى. كنت سأرتاح لتجاوركم، ولتجميع دماءٍ مازالت- ومنذ قرون- قيدَ التشريد في قبرٍ للخلاص بعد ضيق الحياة.

في هذه الظّلمة الطاغية والحمرة المتطفّلة، المطاردة بلا شفقة تشكّل حولي صمتًا قاهرًا وهدوءًا مائتًا لن يهتزّ لهدير الطائرات تُلقي براكينها على الرّضع والعجّز في إدلب ودمشق الشرقية أو الغربية لا يهمّ طالما الدّماء عربية، ولن يكترث لهذا الجوّ المهبول في الخارج تآمر

على روحينا، واقتنص منهما هُدنة حلمٍ صغير بحجم خرم إبرة.

موات أنت هناك.. ونصف ميّت أنا هنا.. بي من الصّقيع والألم ما يُفني قبيلة، ولولا جلال الموت وقانونه الصّارم لعلا صوتي بما أملك من قهر «أليس من اللّياقة أن أرحل قبلك أو ليكنْ رحيلنا معًا، وإن شرّدونا مِن عالمهم بحجّة حلم الطّفولة وذكريات الوطن، فلم لمْ يدعونا إليه ترابُ الوطن معًا؟

لو ضُمّ وجعي إلى وجعك في ذاتِ الكفن، فهل من عدل السّماء أن يستمرّ شتاتنا، أم ذاك قضاء من صنع العدم؟

لقد استوعبت الأمرَ يا ريحانة بعد أنْ بلغ العمر كلّ انكساراته وخيباته.

قلت لي في أعقاب أمسيةٍ بدأت حميمةً وانتهت حزينة، وقد سبح جسدُك في عرق بارد، وجحظت عيناك لألمٍ استوْطن فؤادك حتى خفت فقدَك غير أنّك ظللت تُقاتلين، تنتصرين للحقيقة والكتب المفتوحة.

واجهتني لحظتها بعينيك محّذّرةً «أُنقل عنّي يا روْحي أنّ الحياة وحدها تصنع بشرًا، وأنّ الحبّ فقط يُصيّره إنسانًا.

فقد ظللنا يا روْحي تائهيْن في برزخ الغياب، فلا نحن انْغمسنا في طمي الحياة، ولا حلّقنا في سماء الحبّ، وإنّ قومًا قد فصلوا بين نضال المستبدّ وترنيمة حبّ وبين بندقيّة وقصيدة غزليّة، وبين رسالة عشق وخارطة حربيّة سيظلّون مهزومين في كلّ حروبهم.

ع قولتي يا روْحي، ولا تُصنّفها في خانةِ الخرف، فالحبّ عندي وعي وقُدس، هبة وتملّك سعي وكدح، قبلة ودمعة نظرة ووخزة وردية في القلب المرهق، نور وفجر وماض يؤسّس لحاضر، وحاضر يحمل بُشرى لآتٍ، ويدٌ تمتدّ للآخر قبل أن تُرفع للسّماء هو انْحناء في إباءٍ، هو فرحة اللقاء بلا ميز ولا لون ولا دين أو جنس، هو الله في عرشه لا بدّ أن يحلّ فينا كي تصير الأرض سماءً.

وأنا يا روْحي آسفة الآن على الثلاثين سنة عن عمرٍ انسحب لُهاثًا خلف أوهام بشر، حُلل مزركشة بمثل، اعتقدتها مُمكنة في عالمٍ أصبح يمشي على رأسه، ومبادئ ديست على الإسفلت، وشعارات طُعْم لصيدِ الإخوة والرّفاق على السواء.

كرهت نفاقَ السّاسة وكفرت بالانتماء، ألا يمكن أن نُحبّ الوطن دون لافتة؟

الكلُّ يا روْحي مُطالَب بفتح دفاتره، وإعمال معْول الهدم في الرّؤى الإقصائيّة، حتى يتّسع أفقُ الوطن للجميع، وما من قوّة بقادرةٍ على قلع الإنسان من تربته، وإن حدث فإلى حين.

سجّل يا روْحي، وانْقل عنّي صادقًا أنّي ما خنت.. كنت صافية كدمعة صريحة كبقعة ثلج، قلت لهم لمّا حوّطوني كصيد ثمينٍ بالجامعة، سأكون معكم شريطة صدقكم وثباتكم في حبّ الوطن، كنت حينها

أتّقد حماسة، وأنا أُتابع على الشاشات مجازر «صبرا وشاتيلّا» وقهر الحجر عدا عن البشر في فلسطين، وأسمع لمظفّر النّواب يُنكّل شعرًا بالقمم وأصحابها من المعيز والغنم، ولنزار قباني يُعرّي ديكة الأمة.

فضممتُ حُنجرتي إلى حناجرهم تصيح بي «الحرية»، وضيّعتك أنت وسط ذاك الزخم الثّوري، وأخذتني المواقف والأحداث والشعارات، أنكرت ذاتي وعواطفي وامتلأت بالقضايا الحارقة، قهرٌ وفقر واستبداد ودوْس على الكرامة والمقدسات، وكنت قد وفدت مِن الطبيعة الخالصة، من جنّة حقلنا حيث ما عشت ضيمًا.

وطغت سليقتي، وغزت كلّ شبر فيّ، وفي غمرة هبّتي ما اعتقدته أفقًا تُهت عنّي يا روْحي، وظللت كما أنت خجولًا صامتًا، محبًّا في غير صخب، وكان الصّخب من حولي يزلزلني، ويغيّبك تدريجيًّا عن ناظري.

قلت لك: وهل المحبّ المخلص يضيّع الحبيب في أوّل زحام؟ أليست الحياة معتركًا وغربالًا حقيقيًّا للمشاعر والمواقف على حدّ سواء؟

قلت لي: بلى يا روحي، قد ظلّ الفؤاد نابضًا كما كان أبدًا منذ الصّبا، منذ كنت أقفو خطوك وأبحث في الأماكن عن أثرٍ ما لحبّك، عن التفاتةٍ عفويّة أُحمّلها قصّة رومانسية كنت مستعدّةً لاختلاق عقدتها وحلّها وأرْوع الفصول فيها، كنت أبحث عن ابتسامةٍ تحمل

سرًّا، رسالة مشفّرة، أقضّي الليل في فكّها والتلذّذ برموزها، غير أنّك كنت صندوقًا أسود.

وجئتني اليوم، وبعد عقودٍ ثلاثة، بعد كلّ الهزائم العربيّة، وكلّ الحروب الكونيّة وسقوط بغداد في يدِ ماغول النّفط وأنهار الدماء في بيروت وفلسطين والسودان واليمن «السعيد» وتسونامي والجمرة الخبيثة والانقلابات العسكريّة والشتوية والصيفية والحرب على الإرهاب وسقوط الشيوعية وحائط برلين وبناء آخر على أشلاء أطفال مخيم «جنين».

جئتني يا روْحي، وقد سمعنا ورأينا صنوفَ القهر والإذلال في مدننا العربيّة لتكشف خبايا صندوق عواطفك، جئتني تُمطرني هيامًا.. ألم تبلغك هزائمنا الحربيّة والنفسيّة والعاطفيّة؟

أنا.. مهزومة يا روْحي، وشمُ الهزيمة في القلب ساكن.

جئتني تُبلغني بهبلك بي، وقد بلغ مداه، وأنّ الثلاثين عامًا كانت نتفًا من الحنين والأنين والصقيع والدموع تُغرق أفراحك.

آهٍ يا آهي، أتدرين أنّك حطمتني مرّتين؛ الأولى لمّا صمتّت، وكنت لك من رأسي حتى قدمي، والرّوح قد سافرت فيك قبل الجسد، والثانية بسيل عواطفك وخرافة في التفاصيل، أُقدّر- والله- صدقَها ظهرت لي عارية بعد الثلاثين كنت لأحتويها بين الشغاف

والشغاف ولأحميها تقف العين من أجلها تجاه الرّصاص.

قاطعتك حينها وقد مزّقني الحزن: ليس عليّ أن أصرخ في كلّ العالم معلنًا مشاعري، تدرين أنّ صمتي كان يخفي بركانًا.

فرددت غير مُقتنعة: كرهت يا روْحي تطرّفك في الحالين، صمت حتّى التورية وكشف حتّى الفضح، كنت لأكتفي بحبّ وسطي ينعش صباي اليافع، ويُهدّئ روْعَ جنوني ويضمّ غربتي بين جناحيْه، ما كان لك أن تتركني أرفعُ ناظري لغيرك أكتشفه وأبحث في خبايا مشاعره وقادم نواياه، ولم أكنْ طوّرت وسائلَ أبحاثي بعد أنِ اكتفيت بك وجرّدت نفسي من فرضيّات الخطأ والأسئلة الفخّ والبحث في أبجديّات الفشل، مُنوّمة كنت تسير بي السّبل ولا أسيرُ فيها، والغشاوات تتراكض كما سُحب الريح أمامي، وتُلاحقني الرزايا حتى الخدر والنّسيان والفرار من الواقع والشرود في المجهول.

آهٍ يا آهي، كم العذاب الآن؟ وهل يمكن تفعيلُ الندم الآن؟

قدْ هرمنا يا روْحي دونَ هذا الحبّ الملعون قبل الأوان.

جئتني يا روْحي والشيب ثالثُنا، وبوادر عجزٍ في طريقها إلى مضاجعنا، والنيران فينا إلى رماد، كم كنّا لنسعد بالحرائق وبلذّة الإطفاء.

في صحوي على قليلِه كنت أتمنّى أنّنا ما كنّا التقينا بعد الثلاثين سنة لكُنّا تخطّينا هذه الفجوة العاطفيّة بيننا، وظلّ عيشُنا مثلما الذئاب

المنفردة تعيش، مليئة بالوحشة والعواء.

تصوّر أنّ قلمي يا روْحي صار يُحدّثني في حالة غليانٍ فيقول «سئمت أنْ أُدفن في طيّات أحزانك، ألا تعلمين بوجود الربيع؟ وأنّ المروج كما البحار الزّرق تمتدّ في كلّ الآفاق تنتظر إطلالة منك ورفرفة فراشٍ كي يرقص الفرح وتسبح النّجوم ويتعانق النّور مع الغسق في لوحةٍ سحريّة مجنونة كافرة بحدود الزّمان والمكان.

وأنا يا روْحي عاجزةٌ عن الفرح الآن.

قاطعتك، أُنهي نوْحك المؤلم، وأنا أقول: أحيانًا يا ريحانتي نتجاهل الأقدارَ ونُعمل أظافرنا في جلودنا سلخًا، وقلوبنا جرحًا دون أن ندرك أنّنا نسير كما قُدّر أن نسير، لم نكن أبدًا ربابنة مراكبنا إذا تعلّق المصيرُ بنبض القلوب. كفّي يا نورا، انبثق ثانية في جولة العمر الأخيرة، ما كنت أطمع أبدًا بالمعجزات، ووجودنا الآن معًا هُوَ من المعجزات، أو هو خارقة من الخوارق فتعاليْ نحتفي وضممتك إليّ، وأنا أقول «أكملي حكايات الجدّة ورحلة السّفر، فأنا مَن بدأ التكوين أحلمُ بحكايا الطفولة وحنان الأمومة.

فاسترسلت تردّدين:

سأحكي لك يا روحي، فأنا لا أريد الفناءَ، ومعي ذاكرة مخزّنة، أريد قبرًا من التراب للموت الخالص.

سأحكي لك يا روحي حتى نمرّ بجانب الماضي، ونستعير حكمه للمستقبل.

سأحكي لك يا روحي كي يصبح لموتنا معنى.

فقد قالت لي جدّتي يومًا وأنا أستعدّ لسفرة بحريّة «بسْملي يا ريحانة وأنت على ظهر السفينة وألقي التّحايا على الأهل هناك، مازلت أحتفظ في صندوقي بالقليل من تراب قبر سيّدنا محرز بن خلف، خذي شيئًا منه وانثريه في البحر، فإنّ البحر الهائج يسكن، والرّياح العاصفة تهدأ، هكذا كان يفعل الأجدادُ عند سفرهم أو خروجهم للجهاد البحري انتقامًا من الأسبان. كانوا يدعون الله وببركاتِ الوليّ الصّالح المجاب الدعوة يسكن البحر، ويسهل عليهم السّفر، وينتصرون في معاركهم.

ومدّتني بمفتاح الصّندوق..

ليس مِن الهيّن أن تسمح جدّتي لغيرها بفتح صندوقِ عرسها، ظلّ يمثّل عالمها السّحريّ المقدّس، رأيناها كثيرًا ما تجلس قبالته لساعاتٍ في طقوسٍ أشبه بالعبادة تتأمّل محتوياته وتحاورها في محاولاتٍ لسجن الماضي وتكبيل الذّكرى فلا تتسرّب، كانت تنهرنا إذا رمنا نبشَ ما بداخله، ويومها حظيت بالمفتاح وبحريّة فتحه.

كان الصندوق يتصدّر بيتها، وهو مصنوعٌ من عود العرعر،

كان غايةً في الكبر، مستطيلَ الشّكل، عليه رسومُ عصافير وأزهار وأغصان منقوشة، والألوان حيّة تدرّجت خضرة وحُمرة وصُفرة، على جنبات الصندوق نقشٌ لطيري طاووس متقابلين نفشا الرياش البديعة الألوان وهُما يتخلّلان غابة يشقّها وادٍ جار.. كان الصندوق بنقوشه وألوانه مبهرًا.

فتحت الصندوق، فتسلّل إليّ عبق الماضي، الكافور والمسك والعنبر مزيج من السّحر، رفعت المنديل المطرّز فإذا بعضُ القوارير من الزجاج المعشّق بها بقايا عطر معتّق، صُفّت حذوها بعض ألبسة من المخْمل الأسود المقصّب ملفّ مصبوغ صنع من الصوف، مكحلة على شكلِ طاووس قبقاب من اللّوح، وحزمة مفاتيح صدئة أسندتها إلى مخطوط ذوي حبره، وأشكلت قراءته والفرّاشيّة الأندلسيّة المصنوعة من الصوف تستحوذ على ركن الصّندوق، تختزل مهارة أنامل صانعيها، وتحتفظ بعبق الهويّة والتاريخ. لم أرَ جدّتي تغادر بيتنا قبل أن تلتحفَ بها بطريقةٍ مميّزة تشي بأصلها الموريسكي، وعلى الفرّاشيّة تصدّرت شاشيّة حمراء مطرّزة بالذّهب الخالص، قالت جدّتي إنّ الباي قد وهبها لزوجها الأوّل خيران رستم القائد التركي الذي أبلى في إخْماد الهبّة التي استهدفت العرش.

أخذت التراب حتى لا أثير غضبَ الجدّة، وأنا أسأل عن

المخطوط، فقالت «هو مِن بقايا مئات الكتب التي جمعت من غرناطة وضواحيها لتُحرق في ساحةِ الرملة زمنَ محاكم التفتيش وحرب الإبادة الشّاملة التي انتهجها القشتاليّون، ألا يُعدّ ذاك الصنيع جرمًا عظيمًا؟

ثمّ أعادت عليّ ضرورةَ إلقاء السّلام على الأرواح المعذّبة في غياهب البحار.

فقلت لها مستفزّة: الأبعدون في الزمن أم الأقربون، ألا ترين أنّ أهلنا أصبحوا في الأعماق كُثر، وأنّ زوارقَ الموت لم تهدأ محرّكاتها منذ قرون. وستظلّ التّحايا موصولة للمبحرين مِن هذه الأوطان الطاردة.

فقالت والرّغبة في الحديث عن الماضي تبعثها «يا ابنتي، لم أنس يومَ الترحيل، لقد استقرّ بنا الأمرُ على ظهر تلك السفينة، وكنّا نرجف خوفًا وبردًا وتيهًا، وكان الظلام مهيمنًا، فلا ندري من يجاورنا، وكانت الأصوات تأتينا من كلّ صوب، ضمّتني روديسة تطمئنُ فؤادي المختلج.

كانت الروايات تخترق آذاني غصبًا عنّي، فالنّاس بعد قانون الصّمت وقهر الكبت انفجرت على ألسنتهم مآسيهم، سمعت إحداهنّ تنتحب، وتقول «ضاع ابني يا رب... كان في «بيدروتشي» يشتغل بإحدى معاصر الزيتون.. أخذته محاكمُ التفتيش بالليل،

ومِن دون ضوء كانوا يقرعون الطبول، والقرية خلفهم في مسيرة.. تنتحب... وتكمل صاروا في النّفق المفضي إلى الكنيسة، ولم يخرج بعدها أبدًا.. وتتملّكها الهستيريا وتهذي، أتراه تابوت السيّدة الجميلة قد أطبق عليك يا «هرارو»، أم هو كرسيّ التعذيب المغطّى بمئات المسامير، أم هي عجلة كاترين؟ أجبني يا هرارو كيف كان موكب الحريق؟

وتتدحرج المسكينةُ تحت الأقدام لا تلوي...

لم تأبه السفينة المنتفضة لعويل الثّكالى والأرامل، وواصلت صراعها مع أمواجٍ كنّا نسمع هديرها وهي تحاول اختراق كلّ التّحصينات، كانت تطلبنا في ثأر، وكنت أزداد التصاقًا برووديسة فزعًا، وكان الإرهاق قد استشرى فلا تسمع سوى الآه ومحارق الأفئدة تعوي.. يقطع ذلك الألم هذيان أو صراخ أو حكاية أخرى معجونة بالدّمع، تذهب الرياح ببعض أجزائها أدراج الموج.

سمعت أيضًا صوت رجلٍ يرتعد، وهو يقول «مرّ القساوسة بحارتنا، ووضعوا علامات على الأبواب فعلمنا أنّنا أهداف مقبلة، وأنّ علينا الهرب قبل بلوغ موتهم الوحشيّ إلينا. لذْنا ببعض الخرائب في أطراف القرية، أكلنا الجوع وأرهقنا الرعب، كنّا نراه في تحرّكات جنود قشتالة، وهم يلقون بجثث إخواننا في وادي الشّيش، وهم يسخرون

قائلين «هذا مرمى الكلاب» حتى صار المكان ملتقى للضّباع والكواسر، وبلغت النّتانة عنان السحاب.. ينهي باكيًا «بعد العزّ.. يا الله ماذا صنعنا؟

وما هي حتى ينطق آخر وهو كالمعتوه «هاتوا لي القشّ، أريد فتله، هاتوا القش...

لم نفهم مطلبَه، وإذا برجلٍ كان يشاركه السّجن، يقول دعوه سيهدَأ، لقد دأب على سحب القش من فراشِه في السجن ليفتله على شكلِ صليب، ثمّ يرميه تحت قدميه مظهرًا الازدراء.. فكان الحرّاس يكيلون له الضرب حتى فقد رشدَه، وقيّض الله فرارنا عندما ثارت قريتنا في محاولات يائسة لطرد القشتاليّين.

لا أذكر يا ابنتي أنّه صمت عن طلب القشّ طوال السّفرة قبل أن يجدوه يابسًا.. سمعنا صلاة تشبه تراتيل معاريف، ثمّ رفعوه ليلقوا به إلى البحر قشّة في مهبّ الأهوال.

كانت الرّحلة عبارة عن موتٍ جاثم، كنّا نتوقّع الغرق في كلّ حين بعد أنِ اشتدّ سعار العاصفة وظلّت الرّيح تطوّح بنا في كلّ صوب، والنفوس متعبة والأجساد واهنة تتقيّأ الوجع والفراغ، وكلّما تقدّمت السفينة نحو الضفّة كان سقوطُ الموتى والجوعى في اطّراد، وتعمّقت حالات المرضى حتى توجّس الكبار من الأوبئة.

كنّا وحيدتين ويتيمتين، انضمَمْنا إلى سفينةٍ من سفن الفارّين

بجلودهم من الأسياخ المحماة والحجارة المشتعلة تلهب الأبدان.

لا أحد يفرّ من الجنّة إلّا إذا انفتح داخلها بابٌ للجحيم، قال ذلك موريسكي من أراغون وهو يقدم نفسَه، وأغنية انتشرت بقشتالة قبل شهورٍ من الطرد، جعل يرغو بصوتٍ هادر حزين»

قالوا إنّه وجب علينا الرّحيل
نحن أيضًا من هذه الأرض
إنّهم يهدّدونا بالطرد
لنذهب كلّنا إلى هناك
أين يوجد جماعات العرب
وأين توجد الخيرات

وقالت أخرى: لقد أصبح الناسُ يلقّبونني بالحيّة الميّتة، حجزوني بانتظار تنفيذ الحرق، والتهم تعدّدت: الارتدادُ عن المسيحية، وحيازة كتب عربية، والاستيقاظ لتناول السّحور.. تكمل مقهورة: أخذني من قرية مجاورة «لبنيكانون» جابي محاكم دواوين التفتيش والمأمور القضائي والعدل الموثق الذين كانوا يجوبون في أساقفة «قادس» و«المريّة» لتنفيذ أوامر الحجز لإيقاف المتّهمين وقد قضوا الليلَ في أحد نُزُل مدينة «طابرناس».

وفي الهزيع الأخير من الليل، استفقنا على صياحٍ عال، وضجيج طبل تركيّ، وأبواق وطلقات مدفعيّة فقد كان أحد مواطنيّ القرية من الموريسكيين يقود الأتراك في هجومهم على المفتشين الذين لاذوا بالهرب من السّطوح حفاة عراة ليكتب الله نجاتي كما ترَوْن.

قلت ونعاسٌ جميل قد أخذ يطوي سهرنا «لم نكنْ نتوقّع صمتَ الجدّة، فكثيرًا ما يعمّها شرودٌ وزوغان يطولان أو يقصران.

وكم مِن الحكايات ظلّت بلا نهايات.. فهل كانت الجدّة تروم دفعَنا للبحث في كلّ الممكنات، أم هو الخرف عدوّ الذكرى؟

فضممتك بشوقِ الدنيا وأنا أقول: بل الذكرى عدوّة الخرف، دعي الجدّة في سكينتها ولْننبش ماضينا حتى تظلّ تربته حيّة جسرًا واصلًا مع أيّامنا، فليس سهلًا أن نعيش حاضرنا دون استنادٍ إلى ماضينا، وإن كان مهتزًّا.

فقلت لي: وهل الماضي سوى إبرٍ مسمومة ظلّت تخزني حتى يلقح من الألم ألمًا، ومن الجرح جراحات.. مَن يستطيع وأد ماضٍ بذاك الهول؟ كلانا يا روْحي لم يفلح في رعاية حلمه، وضاع منّا الأبناء قدرًا أو عبثًا لنبقى شواهد تلوك الماضي والفشل في حزن أبديّ.

(7)

تصدير:

اللهمّ إنّي أعوذ بك من سبات العقل..

علي بن أبي طالب

العتمة

هواتف السماء من حولي في هذه القرية الغارقة في المياه قد هيمنت وعمّقت جبروتها العتمة.. صارت الصواعق مدمّرة، والبروق قد أشعلت ظلمة ليلة حقودة متآمرة، إنّها غضبة السّماء أو هي ولولة الشتاء يُؤبّن رحيلك وقد سامرته في الليالي الحزينة، مَن قال إنّ الطبيعة بلا وفاء؟

ريحانتي أرغب في النسيان، وأتجاهل أنّك على بُعد أمتار منّي ممدّدة، باردة، ساكنة، وما تعوّدت السّكون أحيانًا يكون فقدان الذّاكرة نعمة.

كنت شعلة راوغت سنوات العمر، فلم يقدر على احتجازك في قاعات الجلوس وتقليب الأيّام وانتظار آخر عربات القطار.

شابة القلب ظلّلت، آمنت بالفعل رغمَ شقاء الفؤاد وخيباته، لقد أبكاني بوحك ووجع الثلاثين عامًا، قلت لي: تصوّر يا روْحي حياة لا حبّ فيها، ضجّت أيّامها كما لياليها.. هزّات وهزّات، وكان عليّ الثبات وإنجاح المسار، وفي كلّ خطوة كنت أسقط جريحة، ثمّ أُلملم كلّ الكلوم، وأُواصل السير على الإبر دون آهةٍ أو ضجر..

أدفع النفس، وذاك قدري فقد كان عليّ الصمود وحيدة بعد انهيار «نصفي»، كان ضحيّة القضيّة، وظلّ مهزومًا إلى آخر حياتنا معًا.

تعب أن يُشلّ نصفك، وينسحب من كلّ العلاقات مع العالم الخارجي، وينزوي في ذاته كئيبًا.

مُدمّر يا روْحي أن ترى ما اعتقدت أنّه نصفك وسكنك وحضنك الدافئ منهكًا يائسًا مضطربًا عاجزًا عن إدراك الأبعاد الزمنيّة داحرًا المستقبل، منكرًا للحاضر، مشدودًا إلى ماضٍ مأزوم، محتقرًا للذّات، ومَن دار في فلكها، تلبّسه شيطان الإحباط.

قلت لك: أطال به الأمر؟

فزاغت عيناك ألمًا وأنت تقولين: لقد لبس معطف الضّحيّة وأصبح في علاقة مرضيّة بكلّ مَن حوله، يلعن التنظيم تارة وقد رمى بمنتسبيه إلى ملعبٍ مكشوف وسط تجاذبات عن العمل وآلياته، أيكون سريًّا بأجنحة متعدّدة ومستعدّة لكلّ الاحتمالات، أم يكون علنيًّا ويطبّع مع مؤسسات الدولة ويتوخّى الحوار للإصلاح من الدّاخل، وبين مَن يرى الأولويّة للثقافي والإسلام المجتمعي، وأنّ القراءة العقلانيّة للتراث وحدَها كفيلةً بفهم آليات الأزمة والوقوف أمام إرادة تحنيط الإسلام في ظلّ انحسار النزعة العقلانيّة والاجتهاديّة التي أورثت الأمّة انحطاطًا، فلا بدّ للعقل أن يسود.

تسمعه يا روْحي فتعجب لغوصِه في التحليل والقراءة، ثمّ ما يلبث أن تبتلعه غرفة مغلقة عاتمة ينشد العزلة والتفرّد رافضًا للحياة، فيصير كلّ البيت مقبرةً تئد بقيّة الأحياء، والولدان حينها كانا في عنفوان طلبِ الحياة، وكان عليّ أن أمسك العصا من وسطها فلا تنزعج الحياة بالموت المفروض، ولا تُزعج حياتنا موته الاختياري.

عانيت المعادلات المستحيلة حبًّا للبقاء.

وتراه منبسطًا إثر الليالي الكبيسة حتى تظنّه النّسيم العليل والجدول الرقراق والعصفور الشادي، ولا تعلم متى يتأبّط عصا الرّحيل وحقيبة السّفر، يتيهُ أيّاما في المدن النّائية والبراري، فلا يُكلّم إنسيًّا، وإن نطق فليس سوى قوله:

«التيه حلم والعود بدء

الحقّ هنـــــــــاك

وها هنا ليس إلّا الغسق والضبـــاب

والحبّ لجّ وموت زؤام.....

والوطن فخّ..... والنضال لوثة

سقت الورود الدّماء ولم ترتوِ العروق..

ويعود يا روْحي كالمخطوف عقله مرعوبًا واهنًا متوهّمًا، يسكنه

خوف الدنيا، ويدعوني أن أحضنه وأحتمل وجعَه فقد أوشك رهقه على البُرْء.

يخاطبني همسًا «هل جرّبت ريحانة الخواء؟»

وحين أهمّ بالردّ يُسكتني وهو ينتحب: لا شيء يملؤني وقد فقدت القدرة على تمييز الألوان.

بي كمثل العمى، أتذكرين إقبالي الماضي على فرح الحياة؟ فلم تلبسني الآن موجة غائمة لا تنقشع، وتنهال على مسمعي أصواتٌ غريبة من أزمنة غابرة، لهجات ولغات لا أعيها غير أنّها تتّحد جميعها في نبرةٍ جنائزيّة حزينة، ونذر لا تُحتمل.

ثمّ يصمت كميّت ويتملّكه خوفٌ لعين، فيصرخ بي فجأة «دثّريني.. دثّريني، ها الغيمة توشك أن تفترسني.. ثمّ يهمد كطفل بلا حراك.

يؤذيني حتى الرّعب.. يؤلمني ضعفه واستكانتُه، أجتهد في التهوين عليه بدحْض تهيؤاته، وأظلّ أرقيه وأبثّه بقيّة جهدي حتّى إذا أخذه نومٌ كالموت أدعُه وأنتحي ركنًا أندب حظًّا من الويل حاكه لي قدرٌ مائل.

وما هي حتّى يصحو محمرّ العينين، منفوش الشعر، عاصفًا كالرّيح، هادرًا كالموج، منتحبًا «أنتم والخواء سواء كلّكم شؤم،

عشرتكم نحس، وقراركم وجَع، ومشاعركم كلّها خديعة، ما كان لي الرّجوع، قد والله استلطفت الفلاة، وآنسني نوْح البوم في الفيافي، الموت.. الموت لبشرٍ وثقوا في الحياة.

وتأخذه حالاتٌ من الهيجان حتى يصير البيت قطعةً من الجحيم.

أسارع إلى تخبئة الأولاد من شررِ عينيه، وأظلّ أذرع المكان وأنا ممزّقة بين ثورة بلا عنوان، ورعبٍ في أنفاس الولدين، لا أجد كيف أقتلعه؟

عايشت فصولَ حياته فكادت تودي بأنفاسي وقد حسبته سكني.

قلت لك وحزنٌ يبعثر كلماتي: ألم تبحثي عن طوق نجاة؟ لمَ لمْ تسبحي خارجَ هذه الأهوال بقطع صلتك به؟ كيف تحمّلت هذا الدّمار؟ أنت التي ثرتَ ضدّ صمتي تقبلين براكينه الهادرة.

فقلت لي يائسة: أغرقني في سواد، أرخى ستائره من حوْلي، وأنا في فوْرة العمر وخصبه، وظللتُ أقارع منفردة ارتدادات نفسِه المرهونة لديْنٍ عابر سُدّد لنضال حتمه علينا الاستبداد وعصابات القصور، لقد رهن نفسَه لقدرٍ غاشم وهامش من التيه والفراغ ملأ كلّ الحياة، غيب فعل الإرادة وإمكانيّة النحت في الحجر فيستقيم الكيان، وذاك كان من دروس الكدح تعلّمتها حينما كنت في الحقل أراقب أبي يعزق أرضًا بورًا في قلب الهاجرة، وهو يقول لي «الأرض يا ريحانة كالمرأة لا تشي بأسرار خصبها وجمالها إلّا متى فُلحت

وارتوى ظمؤها، ولا يكون ذلك يا ابنتي إلّا بجهدٍ صادق وعمل دءوب، وحبّ ما له حدود.

وكنت أنتظر الربيعَ حتى أرى جنّة أبي وعروسه في أبهى حلّة من الخضرة والعطاء، أراه متجوّلًا في حقول القمح المتماوج مع النسيم، وهو يرعاها بحنوّ وعشق.

أراه في حقل البطاطا الممتدّ خضرة في اتساقٍ عجيب يزرع الفراغات بصلًا وجزرًا، فلا يُترك شبرًا من الأرض دون عطاء صنيع مَن جرى في عروقه دم موريسكيّ.

وكان أبي- أبدًا- يُؤكّد لي «إنّ حبّ الأرض يقتضي أيضًا تعهدها، وإبراز مفاتنها، هي كائن يا ابنتي يحتاج منّا للحنان ولمسات من الحبّ.

وكنت أقول له: لذلك إذًا كنت أسمعك تحادثها كامرأةٍ تبادلك الحديث.

فكان يردّ عليّ ضاحكًا: نعم وأحيانًا لأثير غيرة أمّ الزين أغني لها غزلًا.

فجرًا كان يُصلّي ويتوكّل مردّدًا «عشق الأرض يبدأ باكرًا، مَن يوقظها يغنم قبلة الصّباح صدّقوني يا أبنائي.

عند الضحى، وأثناء العطل المدرسيّة كانوا يُرسلوني إليه ببعض الأكل أو كأسًا معتّقًا من الشاي، فأتوغّل في الحقل بين الزّراعات

والأشجار والأعشاب، وأنا أتوقّع خروج ثعبان أو أيّ كائن من تلك الأجمات.

أراه منكبًّا على الأرض حبًّا وعزقًا ومناجاةً بصوتٍ جامع لرجولةٍ آسرة ورومانسية حالمة فأقول في نفسي «إنّ ما بين أبي وأرضه قد تجاوز كلّ مراتب العشق ليصل إلى الحلول والتجلّي».

وما إن يلمحني حتّى يُسارع إلى افتراش العشب ودعوتي حذوه وهو يقول لي: ليتك ولد يا ريْحانة لكنت كشفت لك أسرارَ الأرض، وعقدت بينكما صلة لا تنفصم.

فأجيبه واثقة: نعم يا أبي لأجل هذه الخضرة وحتى تظلّ أنفاسك تخترق الأرض وتُزرع في روحي سأدرس المجالَ الزراعي، وأرعى حلمك حتى النّهاية.

ولم أكنْ أدري أنّ السيّدة مديرة المؤسّسة التربويّة ستحبط عبثًا حلمنا المشترك على بساطته حيث دوّنت أسفل بطاقة أعدادي سنة التوجيه بأناملها البيضاء وأظافرها ذات الطلاء الأحمر الفاقع «غير صالحة للقطاع الفلاحي، تُوجّه إلى شعبة الآداب»

للهّ درّها، وهل أحدٌ من أترابي كان صالحًا لذاك أكثر منّي؟

أنا بنت الحقل والعشب والنّدى.. أنا الفراشة ونسمة الصّباح.. أنا البلبل الصّادح بترانيم الأماسي الربيعيّة، أنا خصب «إنانا» ودمعة

«نوت» النازلة من قلب الغمام عشقًا لـ «جب»، وزهرة اللوتس العائمة على سطح البحار تنسي الكائنات الوجود.

أستيقظُ على الجنّة الخضراء، وأبيت ليلي على أحلام العصافير وأمنيات الغدران.

قرار المديرة كان بداية خيباتي، وعلامات حزن لمستها في عينيّ أبي.. غير أنّه ظلّ يؤكّد لي أنّ دماءنا الموريسكيّة لا تُغذّى إلّا برائحة التربة وطعم النّدى، نحن يا ابنتي قد دأبنا على الغرس واستيلاد الأرض أينما حللنا.

ويُردف مهمومًا: تدرين يا ريْحانة أنّه- وبعد التهجير الظالم الذي طال أجدادك- قد أقفرت المزارع وأجدبت الحقول، ومُني الاقتصاد القشتالي بخسائرَ فادحة، بعد أن رحّلوا أصحاب الأيدي المَهَرة والقلوب المولعة بالأرض، فقد اعترفوا «بأنّ البستان كنز إذا كان البستانيّ مورو» وصار ذاك مثلًا سائرًا.

مسلمو الأندلس أهدوْا شبه الجزيرة الحياة ورُحّلوا عنها.. آه يا ابنتي من وجع الذّاكرة، بالله أعيدي عليّ تلك القصيدة حتى تلهب الذّاكرة ونحن نمرّ قرب ماضينا.

قلت مستوضحة «قصيدة لوركا، أم نزار يرثي غرناطة؟؛ فقد كان مولعًا بهما.

قال «اتركي نـزارًا لوجع آخر، وهات من تسمينه لوركا.

وأغمض عينيه ووضع رأسه على ركبتي كطفل، فأخذت أنشد:

نهر الوادي الكبير يجري

بين أشجار البرتقال والزيتون

نهرا غرناطة ينحدران من الجليد إلى حقول القمح

أوه حبّي الذي ذهب ولم يعد

نهر الوادي الكبير

له صدف من العقيق الأحمر الصافي

نهرا غرناطة

أحدهما من عويل والآخر من دم

أو يا حبّي

الذي اختفى في نسيم رقيق وعلى مياه غرناطة

ليس يستطيع التجديف سوى التنهّدات...

عاش أبي يتيم الأب- جدّي مرياح هاشم السرّاج- الذي لقي حتفه وهو يشرف على حفر بئرٍ عميقة لريّ الحقل الذي صيّره جنّة.

فانفرد أبي يا روحي بنحت كيانٍ قادر على شقّ غمار الحياة في ثبات، عشق أسرار الأرض وغموض البحر، وأفنى العمر في مراودتهما التماسًا لأفضل ما فيهما، لم أسمعه يومًا يلعن هيجان البحر، وغدوّ الأسماك إلى قاع البحار، ولم أره يشتمُ أرضًا بورًا تأبى الفلح والخِصب.

لم يلقِ المعول، وداوم على رمي الشباك زمنَ الأنواء، وفلسفة فطريّة ترسّخ في ذهنه أنّ الفعل تحدّ، والنّجاح ثباتٌ في وجه المثبطات، والحبّ بسمة تزرع في العيون بلا مقابل، وأنّ السعادة تجاوزٌ للأنا، وسبح في اللازمان واللّامكان حتى يتساوى في الحبّ قطرات النّدى وحبّات رمل الصحراء وعينيْ حسناء.

لا أنسى يومَ ربَتَ على كتفي وهو يؤكّد لي أنّ مفتاح السّعادة الحقيقي يقتضي أن ننزع من قلوبنا الأحقاد تجاه كائنٍ مَن كان؛ فالقلوب يا ابنتي يقتلها الحقد.. افتحي قلبك لكلّ الرّياح وأحبّي كلّ البشر فيزددْ نقاءُ وجهك وألق عينيك.. تعطّري بالمياه وسرّحي شعرك الليليّ بنسمات الفجر ينتعش وجودك.

وليعمّ روحك الدفء، فالبرودة آخرها انكماش.

كان أبي- رحمه الله- كتابي وأسطورتي، عشت على التلذّذ برموزها.

ولم أفهم كلّ فلسفتك حينها أبي، ولم أعِ أنّ الإهمال أوّل درجات البعد والنسيان واندحار أشباه العواطف في قطب الشمال.

أتدري يا روْحي أنّي تعسّفت على قلبي لمّا أدرجوني معهم في النّضال وتحمّل قضايا الوطن الرّازح تحت الظلام وآمنت بذلك بصدق، ودفعت نبضات عواطفي أوّل مهرٍ غير أنّ كلّ الدّفعات المتبقيّة كانت على حسابي، من فرحي من هدأة الليل في ركنِ أحلامي

من جهدي من أنفاسي وكلّ شريان في جسدي.

ظننت أنّ حمل همّ القضيّة مشاركة وتحمّل حتى النهاية، فوجدتني وحدي مندفعة في طريق الشوك والضياع، أحمل همّي وأشلاءَ نصفي المتقهقر خلف الضباب، وأنا أصرخ في الخديعة:

«حاصر حصارك لا مفرّ

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوّك

وسقطت قربك

فالتقطني

واضرب عدوّك بي

فأنت الآن حرّ.. حرّ وحرّ

على صوت محمود درويش الصّادح تربّيت، كنت أسمعه وأنتشي لمّا يقيمون التظاهرات الثقافية داخل أسوار الجامعة..

فأين أيديكم مع يدي؟ بل أين ما اعتقدته شريكَ الأيام مُرّها وعذبها الموعود؟

لماذا أجدني وحدي في طريقٍ مكشوف، ووابلٌ من زخّات الألم تخترق قلبَ حياتي دون ردّ أو يد تمتدّ إلى أملي، أراه أمامي يُجلد حتى القهر!!.

النّضال- كما فهمت- انغماسٌ ومشاركة ووعي وتحمّل، ودفع

لكلّ الفواتير من الروح ومن الدّماء، وليس نوْحًا وتقهقرًا إلى الوراء.

في أوّل المنعرجات يا روْحي وجدتني أحمل همّي وأمضي، وكنت مقاتلة كما تدرين، وظلّ سيفي مشرّعًا بلا غمد، وأنا أردّد «أبلُغ أمانة الوطن أو أموت دونها كما قرأت عن أبي.. وأوّل الأمانات كانت أسرتي، وجب أن تظلّ قائمة فلا يندحرُ الولدان إلى السّراب تأكل أحلامها الهزيمة، وتملأ نفسيها العقد.

وحمّلت النفس الاشتغال على العقول، أعالج تفريغاتها المقصودة من خلال اختيارات مسمومة عملت عل خلق أمساخ من الخوف والخواء تقبل أن تُساق كالقطعان إلى مراعيها.. فهمت الرسالة، وسعيت إلى نشرها لتفعل في عقول الأجيال، ولعبت دوري كمربية بتميّز، خاتلت البرامج المحنّطة، وفررتُ مع تلاميذي من أسيجة النصوص المكبّلة للفكر والاجتهاد، وحلّقنا معًا في عوالم المسكوت عنه في السياسة والاجتماع والفلسفة والرّاهن.. زرع الوعي هو الوطنيةُ في أرقى تجلّياتها.

فالوطن عندي أسرة أوّلًا، وأجيال من الصفحات البيضاء علينا أن نرسم عليها حبّ القيم وتغذيتها بالمثل والاستماتة من أجل نفس عزيزة كريمة ثابتة على المبدأ مؤمنة بالإنسان في كلّ أبعاده وامتدادات أفكاره بمصادرها المتعدّدة، وتثمين كلّ قدراته الإبداعية

في لوحة مشرقة تجمع ولا تُشتت، تبني ولا تهدم.

فهل تُرى يا روْحي كان يحتاج منّا الأمر رؤوسَ أموال طائلة وتضحيات جسام، غير أنّا ما وجدنا مِن المستبدّ إلّا العصا الغليظة.

ظلّت سهراتنا ريحاني تأكلُ ظلمة لياليا الفائتة، واسترسلت أحاديثنا، كنّا بعد العقود الثلاث مشتاقين لكلّ شيء حتّى لبعض الخصومات والتوتّرات الصّغيرة، كنّا نُحبّها ونجتهد أن تكون، نُخاتل بعضيْنا بأنّنا في بداية حياتنا ككلّ زوجيْن حديثي عهد بالزّواج.

كنّا نروم إخفاءَ الماضي خلفنا لو كان يُمحى، وتُعاد لنا أيّامه بيضاء لا جراح فيها ولا فقد للأحبّة تنتظر أن نخُطّها من جديد ولو بدمنا ودمعنا، فنكتب حكاية حبّ اكتسب مناعة ضدّ النّسيان، جاء مِن ألف ليلة وليلة، والقصص المستحيلة التي ظللنا نقرؤها في الكتب القديمة لإنعاش الخيال، حبّنا يا ريحانتي هو الخيال.

في زمن الدّينار النّازل وسيّده الدولار وزواج المتعة والمسيار وجهاد النّكاح وبيع الأجساد في المزاد؛ وُلد في ذاك الشّمال القارس حبّ نما في الأشواك والعيون التي تعبأ الطرقات وكلّ المحاذير والممنوعات، وذوى عبثًا سنوات، وعاد لينبعث حيًّا عبقًا قويًّا طموحًا بعد عقود ثلاثة.

مَن قال إنّ الأرواح كما الأجساد تستكين أمام عصا القدر الغاشم، وأنّ نارها لا تُلقحها المياه.. قد انبعث ما بيننا مثل انفجارِ البدْء والبيضة الذهبيّة التي طفت على المحيط الأزلي في ليلةٍ شتويّة عمّت مياهها أديمَ الأرض، وغطّت وجه السّماء، فأعاد طوفانها الشرايين إلى مجاريها، ونبض القلوب إلى عاشقيها، وتلك حكمة الوجود، وسرّ إلهيّ عظيم.

يا لعذاب مَن حولنا بجنوننا، ولعمرنا المجنون بهذا اللقاء.

(8)

تصدير:

كلّ شوق يسكن باللقاء لا يُعوّل عليه.

ابن عربي

الفَحْمةُ

تكلّست أطرافي وتجمّدت الدّماء في عروقي.. والصقيع لم يفتأ يشتدّ، إنّه اللّيل وسواده الفاحم، وبيت خواء كروحي، والجوائح الشتويّة لمدينة الشمال حيث نبتت تلك القرية الساحرة على خاصرتها، وقد احتلّت أقصى نقطة على خارطة الوطن.. طوّقها البحر بالثلاث، ونوّمتها الجبال والرّوابي على سفوحها، وتوّجتها الغابات بأكاليل من الخضرة والعطور، فتمايلت نشوى يُهدهدها ماضٍ من أعماق الحضارة أتى، ويُغريها آتٍ، معمارُه الحلم والبناء.

في تلك المدينة العروس يتيهون عشقًا، وأنا هنا أتيه حزنًا، ويقطعني الفقد وقهر ألّا أودّعك.

ما كان لي يا ريحانتي أن أقبل رفضَك إعلان زواجنا لأيّ كان في الحياة والممات، لكنت الآن أولى الناس بك.

امرأتي حبيبة عمري المتقطّع، لقد كتمتك حبًّا وهجرًا وزوجة آخرَ المطاف، وعذابًا لم ينته حتى اللحظة، فهدّني الكتمان، وانفجرت داخلي كلّ الأسرار تدمّرني شيئًا فشيئًا، وآخر الكبتِ انفجار.

أذكر لمّا هاتفتني وكان اليوم ربيعيًّا يؤنس النفوس الحيارى، وأنا

مُستلقٍ في حديقة أنظم فصولًا من حياتي، وأسترجع من الماضي حلوَ الذكريات.. حتى جاءني صوتك متهدّجًا وبقيّة بكاء مازالت تُربكك وتشي بدموعٍ منسابة أحسستُها، قلت: وصلتني من غيث البارودي رسالة تطلق يديّ من عقال زواج ظلّ أبدًا حبيس الأوراق الرسميّة.

كتب «لم تكوني أبدًا لي، وبداية الخطأ حين قبلتُ شرطَ طمر قلبك في وادٍ قطبي، اعتقدت يا امرأة لم تكن أبدًا لي أنّ النّساء جميعهنّ سواء، وأنّ قلبًا آخر سينبت لي.. غير أنّ خيبة الرّهانات قد تُولد مِن رحم الرّهانات عينها.. فقد راهنت على قصور ذاكرتك وكانت مشتعلة، وراهنت على قدرتي على احتوائك وفشلت، وراهنت على حياة تُنسيك الماضي فألّبت براكينها كلّ الماضي في قلبك.. أشهد أنّي آلمتك ولم تكوني أبدًا ملاكًا مثلما لم تكوني أبدًا لي، لكنْ ستظلّين الحلمَ الوحيد الذي راودني.. انتهينا وأكل الصّدأ رصيد العواطف.. انطلقي نحو فجْرك المزعوم، وسأرقب غدي الذي لن يكون.. أنت طالق بالثلاث.. وأكثر»

وصمت حزينة...

تفهّمت الأمر، فإعلان الفشل لن يكون أبدًا بمذاق إعلان قصّة حبّ آذن به النّضال، ودحرته ثورة مضادّة لكما، إنْ هي إلّا عواطف مشبوهة سرعان ما انكشفت بانتهاء مبرراتها، علقت

بيني ونفسي حتّى لا أعمّق جرحَ امرأة سريعة العطب تستلم طلاقها توًّا عبر رسالة.

عادتني حينها ذكرى رسالتك «القاتلة» «بيني وبينك وطن»، ووددتُ أن أقول لك: لم تزدهر الأوطان إلّا حين أينع الحبّ فيها، وعمّ ساحاتها العامّة وجسور مدنها وكنائسها القديمة وعرصات متاحفها وهضاب أريافها الخضراء الفتيّة.

الحبّ سيّدتي هو الوطن، بدونه تظلّ الأوطان غارقة في السّفك والدّماء والإقصاء.. والبيع والشراء.

الحبّ سيّدتي أصلُ الأشياء، وما سواه الفروع والقشور والمتمّمات.. ألا ترين أنّ الوطن بلا حبّ قد عشّش فيه الخراب والإهمال والنسيان!؟

لقد كنت حبّك ووطنك ومرفأ سلام روحك الجامحة.

انتابتني مشاعرُ متناقضة بين الحزن على حزنك والبكاء لأجلك والفرح باستردادك كاملة لي.

ريحانتي، لا أتصوّرك تُدركين قهر رجل يأخذون امرأته وحبّ عُمره في شربة ماء ودون تمهيد أو مبرّرات، يتركونه عاريًا يتلظّى على صفيح ساخن، وأسئلة دامية تخز كلّ مسامّاته، لو عشت نكبتي ليوم يتيم؛ إذًا لاحترقت.. وكنت أكتفي بالالتهاب في اللحظة ألف مرّة،

احتجت إجابة تُطفئ قروح الرّوح وندوب قلبي.

الآن وأنت مُسجّاة في بيت مجاور، ينتظرون أن يرحلوا بك عند أوّل صحو في الصّباح، تزدحم ذاكرتي المُتعبة بصورٍ ومواقف، لعلّ أغربها يوم استعدادي لملاقاتك أوّل مرّة بعد غيبة الثلاثين، تحوّلت إلى مراهق النبضات، أرّقني السّهاد وبتّ أعدّ أسئلة وأتهيأ إلى إجابات، امتحان آخر منك صعب، أخاف أن أخفق، كيف ستريننني؟

تصوّري فعل الزّمن طيلة هذه السنين، وهل نقدر على إدارة عقارب الذّاكرة وإيقافها عند نقطة زمنيّة معلومة تجسر هوّة العقود الثلاث؟ كيف سنرافقها ونتدرّج بها نحو تحوّلات الجسد والرّوح؟

كيف سنقبل حرثَ السنين في ألق الشباب وتدوينات الأيّام على جسدينا؟

وهل تصمد الأرواح التائهة أمام لهفة اللقاء؟

لكليْنا- يا حبّ عمري- تجربة قائمة في الحياة، سأجيئك ومجرورة ورائي من الوقائع والحقائق والعلاقات بعد أن كنت لك مفردًا.. هذا المفرد يصير عددًا.

وأنت والعالم مِن خلفك وكلّ خيبات العمر.

كيف نُبسّط هذا اللقاء ونخلص من شوكه قبل الوصول إلى حلاوة اللبّ، كيف ننجو من مطبّاته المهلكة؟

هل سنكون صريحيْن وصادقيْن؟

هل سنعرّي تجاربَنا ومواطن فرحنا الماضية وخيباتنا؟

والجروح أين نغمرها؟ وكيف؟

صدّقيني هذا أصعب امتحان يعصف بي.

أنا متعب- أيّتها المغادرة دون رجعة- حتّى القلب، غير أنّي أقدّر رفضك إعلان زواجنا في مجتمع مازال يؤمن بأنّ المرأة لا تخرج من بيت أبيها إلّا إلى بيت زوجها، ومنه إلى المقبرة، ومَن تجرّأت وتزوّجت بعد فراق الطّلاق أو الممات تفقد الكثيرَ من مكانتها، وتغدو متصابية.. كلّ ذلك أقنعني، أنا الذي يخاف عليك من نسمة الربيع وشعاع الغروب.

ريحانتي، لم أحسب أنّك ستبادرين بالموت وتترُكينني، كنت هيّأت له نفسي قبلك بعمر ميت مذْ فارقتني وأنا على قيد الحياة.

أتذكرين يا ريحانتي الغائبة ويا حزني المقيم لمّا سألتك ونحن نستعدّ إلى ترتيب حياتنا من جديد، قلــت: كيف سيلتئم النّصفان الحقيقيّان وقد ضيّعا عنهما كلّ قطارات الشباب وكلّ فتنِه وألقِه، لقد وصلنا متأخّرين بثلاثين سنة، بعد أن انتزعنا نصفين وهميّين ظلّا يُدميان قلبينا، ويحصدان أوجاع روحينا، هل نقدر على نسف جبال من الوحشة شكّلت العمر؟

أتعلمين ريْحانتي أنّي قضيت اللّيالي قبل اللّقاء أستجدي ذاكرة حبلى بالأشواق وذكرى الألم.

وددتُ استنبات صورةٍ لك حديثة العهد، فما تصلني غير صورتك قبل الثلاثين وأنت كالحلم يسري في لطف مفعمة بالحياة.

آهٍ يا حبيبتي، كيف استطاع أن يعبث بفرح عينيك الأبدي ويطمس جذوتك؟

أسأل محترقًا عن فعل السنين، وعن رواسب الأحزان وأخاديد الخيبات في الرّوح والجسد.

هل غدوت عاقدة الحاجبين، دامعة العينين؟ هل غاب عن الجبين وهج اللّجين؟

وهل ضمّتك الأركانُ العاتمة تسبّين الزمن المخاتل وقد أسكرك ألمًا فاق حبّك للوجود؟

سأسألك يا ريحانتي عند لُقيانا: ما الذي شدّك إلى الوجع كلّ هذه السّنين؟

لمَ لمْ تُعْلني ثورتك وقد عهدتك أبيّة لا تقبل ضيمًا، وسوف تقنعني كلّ إجاباتك لأنّي أحبّك بلا نقاش أو تأويل.. وقد أضيف أسبابًا أخرى لم تخطرْ لك حتّى أرفع عنك كلفة التبرير وخاصّة متى تعلّق الأمر بقصّة حبّنا المتروك ذات ديسمبر باردٍ مليء بالوحشة

والدّموع، وسوف أحمّل نفسي عبء القطيعة وأجلدها من أجل صمتي وهروبي من القتال منذ الجولة الأولى حيث كان عليّ أن أدكّ كلّ الأسوار أين احتجزوك، وكلّ الخنادق حيث دفنوا خصلات شعرك الفحميّ الذي كان أبدًا مسافرًا مع الرّياح وشعاع الشموس في حقلكم الأخضر السّاحر.

سأصرخ لأحطّم الكون «أنا المسئول عن كلّ هذا الخراب وإن أعلنت غيرَ ذلك»

سأضمّك جدًّا، وسأقول: نحن الآن يا حبيبتي في المنتصف من كلّ شيء، منتصف العمر ومنتصف الوهن ومنتصف الأمل والفرح بالدنيا، فكيف نُصيّر هذا المنتصف كلّ العمر؟

(9)

تصدير:

لا راحة لك مع الخلق؛ فارجع إلى الحقّ فهو أولى بك.

ابن عربي

الزلّةُ

أوقعني الرّهق والوجع على أريكةٍ بالية مغبرّة جوارَ نافذة مطلّة على ساحة قفراء غطتها السيول وجالت بها يدُ الظلام ترسم وحشةً استثنائيّة، فذكرني المشهد ليلةً مريبة قضيناها تحت وطأة عاصفة خلْناها ستقلع البيت من أساسه، فقد كنت ريحانة محتمية بي وقد غازلك نعاس متقطّع ودفء حنون.

وفجأة، علا صوتك وأنت تُردّدين «نعم راودها.. تحرّش بها»، وسرعان ما أفقت مضطربة.

علمت ساعتها أنّ ما بداخلك ليس له أن يظلّ محبوسًا ودون كبير عناء، وجدتني أستمع منك حكاية شلّت- لبرهة- دماغي وأنا أردّد «أكنت تحسبين أنّ كلّ من لبس جبّة الملتزم بالنّضال ملاكًا!؟»

ها أنّك وقفت على حقيقة أمر هذا المتصابي، أراد توْريط فتاة في عمر ابنته، وحينما انكشف انسحب من حلبة النّضال، أو أجبروه، لا يهمّ.

قلت لي يومها إنّ الذي أحزنك ما قدّمه من معه من تبريرات «زوجته مريضة» الفتاة تجاوبت..

ولم يذكروا مطلقًا أنّ الرجل «المناضل» مريض يُعاني انفصامًا حادًّا بين أناه الظاهرة تستثمر في الثورة وبيْض نضالاتها وأثمانها، وبين أناه المستترة تستثمر في الأجساد ونداء الغرائز ولذائذها.

غير أنّك استدركت قائلة: وإن كانت حالات شاذّة يجب التنديد بها، لا تبريرها.

فذكرّتك بأخرى سردتها، تُمثل فئةً اغتنمت الفرصة لتندسّ داخل بعض الأحزاب المعروفة بانضباطها الأخلاقي، فقد جاء السيّد نوفل ليُلمّع صورته ويصبح ذا وجاهة ونفوذٍ، مُخلّفًا وراءه إرثَ علاقة جمعتْه بفتاة صغيرة أحبته حتّى الانتحار.

نوفل المدرّس الوسيم الرّياضي المتأنّق بارعٌ في حسن التواصل، غير أنّه كان زائغ العينين يُكثر من التودّد للفتيات فيتعلّقن به، وكانت حنان قد أحبّته بجنون جعلها في هستيريا وهي تصرخ «يحبّني، وعدني بالزّواج، انظروا رسائله تنضح عشقًا لي...

حنان زهرة الربيع انتحرت حبًّا وانتقامًا مِن تاركها بعد وعود الزيف، غير أنّه أكمل تسلّق جدران أحد الأحزاب من أجل منصب وجيه.

وحين طالبت يا ريحانة بتوضيح؛ قال لك أحد المسئولين في الحزب «نحن لا نراقب المنتمين إلينا في حياتهم الخاصة أو نلج داخلَ نواياهم» وأردف «هو رجل ضعف، والضعفُ كائن في البشر نسأل

الله التوبة لنا وله».

يومها، سألتني محتارة «أليست هذه الأحزاب بما فيها من خورٍ ونقائص نماذجَ مصغّرة للمجتمع وجَبَ أن تبدأ الإصلاحات داخلها قبل المجتمع؟»

كثيرًا ما كنت تجرّينني إلى عالم السياسة ومستنقعاتها بقصدٍ أو بغيره، أنا الذي اكتويت بنارها دون أن أكون طرفًا فيها بعد أن سحرك بهرجُها، وطغت على ذهنك شعاراتها، وأصبحت خطأ تُقيّمين الإنسان انطلاقًا من انتمائه لحزبٍ ثوريّ معارض إذًا هو وطني، وكأنّ الوطنية أصبحت حكرًا على طرفٍ دون آخر، كم مرّة قلت لك يا ريحانة إنّي أحب الوطن في عملي بإخلاص بضميري الصّاحي، وبقلبي الخالي من الأحقاد والمفعم حبًّا وتسامحًا، وهو أوّل مراتب حبّ الأوطان.

لم أكنْ ليلتها أنوي النفخَ في الماضي غير أنّي وجدت نفسي مستدرَجًا إليه.

لقد استمعت إليك وأنت تصبّين جامَ غضبك على الأحزاب بمختلف ألوانها وخلفيّاتها بعد أن وقفت على هنّاتها وتآكلها، وفيما ذكرت من الصّواب كثيرٌ غير أنّي لن أكتفي به مثلما اكتفيت بك وحدك امرأة في هذا الكون وما سواك ليس سوى السّراب.

كنت كما تعلمين مكتفيًا بتتبّع الأحداث عن بعد، وكانت لي عينٌ خفيّة ثاقبة، والآن أسألك ريحانة ما إذا كنت تعتبرين الأيديولوجيا الماركسيّة نظريّة ثوريّة وجنّة للحالمين بالدّيمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة مثلما يسوّق المؤمنون بها؟

قلت بتجرّد: على المستوى النظري نعم، ولكنْ لا تنسَ أنّها تحوّلت مع بعض النّظم الشيوعيّة إلى ديكتاتوريّات حقيقيّة، والتاريخ لا يرحم.

وعقّبت: دعنا لا نسقط من تقييمنا ما حصلَ من ثورة صناعيّة ثالثة، وبزوغ فجر الرأسماليّة الجديدة وسيطرة المعلوماتيّة.. كلّ هذه التغيّرات الجذريّة وانهيارات المعسكرات الشرقيّة أدّى إلى تفجر الماركسيّة كفكر بما يعني ذلك من تعدّد حتى التناقض أحيانًا، ولنأخذ على سبيل الذّكر الموقفَ من القضيّة الفلسطينيّة حيث تعتبرها بعض الفصائل الماركسيّة من الترّهات الرجعيّة القائمة على أخوّة الدم والعرق وليس الأخوّة الكونيّة المفترضة.

قلت معارضًا: ولكنّ القضيّة حيّة عند التروتسكيين حين اعتبروا الأمّة العربيّة حقيقة تاريخيّة وفي وجودها دعمٌ لانطلاق الثورة العربيّة؛ لأنّ الوحدة تسمح بتجميع الثورة.

فأجبتني: ولكنّهم قلّة من النخب، إنّ مشكلتهم تكمنُ في

العجز عن تحديد علاقات الإنتاج السّائدة في تونس والعالم العربي، ينضاف إلى ذلك عجزٌ عن التعامل مع هويّة المجتمع في تنوّعها وانفتاحها وحتى انغلاقها أحيانًا.

صدقني يا روْحي إنّ أيّ فكر لا يحسن التغلغل في هذه الثنايا الرّقيقة سيُلفظ بالتأكيد.

قلت لي وتعبُ السّهر قد أرخى نظراتك: قد ألّبت فيّ الماضي ولم أكن أنوي فتح حوار حول مواضيع مضنية أردت غلقها وللأبد، لا أريد عودًا على بدء، ما الحياة يا حبيب العمر سوى نوافذ من التجارب تنفتح أمامنا نافذةً نافذة، ما شئنا تركنا مفتوحًا وأوصدنا الباقي.

فرددت عليك مستفزًّا: ولكنّك أوصدت نافذة قلبي، وعلّقت فرحي بحبّك، لن أنسى يا ريحانة قولك «بيني وبينك وطن» على مثال «بيني وبينك ثأر» ومتى كانت الأوطان ثأرًا بين محبّيْن حتى النّخاع! أما كان الوطن ليكون اكتمال فرحتهما؟

قلت لي متبرّمة: أرأيت يا روْحي مصاعبَ التئام النّصفين، لاحظ أنّ الجراح متنمّرة للاندلاع في أيّ لحظة، وتحت طائل أيّ استفزاز، هل يا تُرى تسرّعنا في جمع النصفين الحقيقيّيْن، أم قد شابهما بعضُ زيف، وفعلت العقود الثلاث في انسجامهما الذي كان؟

فقلت لك: أعتقد يا ريحانتي أنّ مثل هذه المواضيع لا بدّ أن تُشفي جراحنا فلا خوف من إثارتها، فحبّنا لو كان هيّنًا لغيّبه تُراب السنين.. ترين بقي ملتهبًا، صاحيًا، مورقًا، منتفضًا من كلّ الحرائق.

أسندت عليّ ظهرك وأنت تسألين في حُرقة: متى ينصلح شأن الأمم؟

بدا سؤالك عامًّا فضفاضًا، ولكنّي حاولت الإجابة، فذكرت لك جملةً من الشروط والظروف، ورغم انتباهك لمّا قلت لم تقتنعي.

وفجأة، استقمت في جلستك وكلّك حماسة وأنت تدقّين على صدرك وتقولين: كلّ الشروط والظروف تُختزل في الإنسان، الإنسان المكتمل الكيان ثقافة ووعيًا، المُعبّأ قيمًا، هو وحده الذي تُبنى عليه مفاخرُ الأمم وتنصلح شئونها.

قلت لك مستفزًّا: تقصدين الإنسان المنتمي، المسيّس، المتأدلج؟

فأجبتني: لا يا روْحي، إنّ التجربة قد قلبت كلّ تصوّراتي، تعلم أنّي تعايشت مع المناضلين وأنّ السياسة قد استأثرت بسنين عمري فوقفت على معاناة القيادات وبعض أحوالهم النفسيّة المستعصية أحيانًا، فيهم مَن تحنّط في الماضي يستثمر في سنوات الجمر كأصل تجاريّ، وآخرون سدّوا عليهم أبواب الدغمائيّة والأيديولوجيا العقيمة وجمع ركبه جنون العظمة، وقليلهم مَن بقي في قلبه هوى للوطن.

قلت لك: إنّه متى لا تُربّى الأجيال على التسامح والقيم المشتركة فإنّه يصعب أن نجد ثقة متبادلة، لذلك تريْن منسوبًا مرتفعًا من الأحقاد والتخوين أدّى إلى نفور الشباب وكفرهم بعالم السياسة، ولكنّي أراك تتحاملين على المناضلين؛ فهل ما قدّموه من التضحيات هيّنٌ؟ أليس من حقّهم أن نُجلّهم؟

ضحكت وأنت تردّين: نُجلّهم نعم، ولكن شريطة ألّا يتحوّل النضال صكًّا على بياض من خلاله تُمرّر الأوامر دون نقاشٍ، والقراراتُ تُصبح فوقيّة، بحجّة أنّهم لا يخطئون ولهم السّابقة في النّضال.

أفهمتني يا روحي؟

ثمّ واصلت: أسعدُ يا روْحي حين تنخرط معي في مثل هذه الحوارات، كنت اعتقدت لمّا هجرتك أنّك لن تُجارِ حماستي لشأن الوطن وقضاياه وذاك خطأ عمري.. وُلد من حماسة الشباب وفورة الالتزام.

وأردفت والهواجس بيّنة على ملامحك «مازال المسيّسون المنتمون إلى أحزاب لم يُدركوا بعد أنّ الثورة قد فاجأت الجميع، لم يتهيّئوا لا لحكم ولا لمعارضة، افتقروا إلى برامج واستراتيجيات مستقبلية، ولكنّهم ظلّوا يُكابرون ويدّعون امتلاك الحقيقة، بل وعملوا على ترحيل خصوماتهم من ردْهات الجامعة ليواصلوا إشعالها على جسد هذا الوطن الواهن المخترق المهدّد بالإفلاس والإرهاب وكلّ مظاهر

الانزلاق والفوضى والانفلات، يفقئون أعينهم بأيديهم حتّى لكأنّ ذلك من أهداف الثورة.

قاطعتك قائلًا: حبيبتي، كلّ يريد التموقع، كلّ يُريد تجذير مشروعه المجتمعي وفق خلفيته الأيديولوجيّة، فالخلاف مشروع طالما لم يُفسد للودّ قضيّة.

فرددت منفعلة: وهل بقي من ودّ في القضيّة، لقد أفسدوها وجرّدوا على بعضهم البعض ألسنة البذاءة والسباب والتهديد.. مسكين هذا الوطن، أخرجته ثورة الشعب من حقبة الاستبداد وأدخله رجالُ السياسة إلى حقبة الإفلاس الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي.

بدا في كلامك الكثيرُ من التجنّي، فأكدت لك أنّ هناك في السياسيّين حكماء بوّؤوا الوطن الصّدارة يخافون سقوطه، لأنّ سقوطه- لا سمح الله- سيدفع كلّ ثمنه.

سمّيت تلك الليلة بليلةِ الأحزاب والسياسة، ترين أنّ الخوض بيننا في شئون الوطن ممكن ولا يحتاج منك هجرًا وإعدامًا لقصّة حبّنا، ها أنا أحاورك وأستمع إليك دون أن نحتاج إلى عالمٍ من الغرباء بيننا، سمحت لهم بأخذك مني، وأخذني آخرون وتُهنا في مجزرة العواطف، وقبل أن تفنى أيّامنا أعادنا إليه القدر.

يا عمر ريحانة ونور ناظريه، كيف انجررنا إلى هذه العبثيّة المهلكة!؟

ظللت أتلظّى على نار حامية.

وحين لاحظت انغماسي مُجـدّدًا في جحيم الماضي وحيرة السؤال تخفّيت بالنّوم مرّة أخرى، صرت أفهمك وأحسّك كأدقّ شراييني.. أصبحت تُمارسين هروب النوم فلا مفرّ لك الآن منّي، ولا سبيل إلى هروب آخر؛ فقد صرت لي، ولن يأخذك منّي إلّا الموت، وها قد فعل منذ يومين وتركني يتيمًا مرّة أخرى، فراقك والله يُتم.. أنت مَن أوجز كلّ عواطف الدنيا لديّ، احتجت فيك دفء الأمّ وخوف الأخت وشقاوة بنتٍ لم ألاعبها وحبيبة جمعت شتات مشاعري دفعةً واحدة.. آهٍ من حياة مُرّة تُعاود طرق ثُمالة عمري بلا شفقة، الآن أكاد أتفهّم إقدامَ نسوة طائفة هنديّة على حرق أنفسهنّ إثر فقد الزوج الحبيب.. ولولا إيماني لقلت إنّه أرْوع الحلول أنْ تحلّ روحك فيّ.

(10)

تصدير:

ألا يا كونُ طال بك التنائـــي وساقك باعةُ الدم حيث ساقوا
يُحاصرني الجرادُ وأنت حولي وثاق أو شقاق أو نفـــــاق
إذا ذاق الجرادُ اليوم لحمـــي أتضمن أنّ لحمك لا يُذاق!

آدم فتحي

الزّلفةُ

هذه الليلة طويلةٌ كالدهر، أثقلُ من جبل، ابتدأت منذ الأزل ولم تخلص حسبتُها، قد جنّدت كلّ الأزمنة الغادرة الرديئة مرّة واحدة، وبلا أمل في الإنهاء، عمّق بؤسها جنونُ العاصفة وهبلُ الرياح المُصفّرة في كلّ الفجاج كأفاعٍ أسطوريّة قد غزت وجهَ القرية فلاذَ أهلُها إلى الفزع والصمت، ماذا عليهم أن يفعلوا أمام جبروت الطبيعة إذا تمرّدت، وماذا عليّ أن أفعل تجاه قهر موتك وحتميّة حزني الصامت!! لقد أخفيتني في شغاف القلب عقودًا.. ورحلت ومازلتُ ذلك السرّ الذي ستحملينه وحدك في ظلمات القبر.

أعلم أنّك لم تعتبرِ ارتباطك بي بعد فراق الثلاثين سنة عيبًا أو عورة لا يحقّ كشفها فقد كنت رجلَ حياتك وموضوعَ حديثك كلّ العمر، وشهوة أحلامك، ظللت مخبّأ داخلك، سافرت فيك، تلبّستك كجنّيّ خبيث لم تُرهبه نيران ولا مياه المشعوذين وكلّ تعاويذ العرّافين، وقارئي الفناجين، وما حكت عنه أساطير الآلهة، كنت فيك صفحة منفردة، سطرها الأوّل بدأ من السماء، وامتدّ على أديم الكون لينتهي عندك، اكتفينا معًا بقراءته حتّى تظلّ حكايته

لنا وحدنا كما كان مدادُه من دمنا، وخضرتُه من دمعنا، انهمر على وسادات خالية في غرف الليل الموحشة.

قد كتمتني في سرّك، وبكيتني في سرّك، وهجرتني في سرّك، وتزوّجتني في سرّك، واكتفينا بنور روحيْنا.

أذكر يوم أكّدت لي «إنّ الأرواح المظلمة لن تستفيدَ من النّور لو هبّت عليها عاصفة ضوئيّة، وأنّ القلوب الخاوية من الحبّ تبقى العمر كلّه رهينة التصنّع، ولن تعي يومًا معنى السعادة، فليس المهمّ إعلان حكايتنا بقدر ما يظلّ نورها كامنًا فينا.

فما كان بيننا لم يكنْ مراهقة لن تصمد أمام جرّافة الزّمن، بل هي حكاية المحتّم، غائرة في روحيْنا من قبل خلقنا بالتأكيد، لسنا سوى منفّذين لقضاء في القدم هي بنت القدر، عشقٌ بدأ ورفرف عاليًا، ولا ينوي ملامسة الفناء.

نخطّط يا روْحي أو نترك الأمر على عواهنه سواء، نحن لسنا سوى جسدين حمّاليْن لروحيْن غير قابلتين للقسمة.

وأردفت «قد وقفنا على عجز السّنين، وغفا عند حكايتنا النسيان وتسمّرت الترّهات الاجتماعيّة أمام جبروت التّنادي وحمّى الجذب.

ها زخّات المياه تطرق نوافذَ هذا البيت البائس وجدرانه طرق سائلِ بيتٍ بخيل أصمّ.

وها الرّياح قد تسلّلت إليّ بصقيعها الواخز فاهتزّ لها جسدي المنهك فسرَتْ في كياني رعشات سرعان ما أصبحت لسعات تُؤذي كلّ شبر فيّ.

فانبريت للرّياح الجبليّة المثلّجة أسألها عن اندحار الأحلام وانصهارها في قلب الغمام، وكيف يطفو جليدُ الأحزان، وتُسافر كلّ الفراشات بلا أملٍ في العودة مع الرّبيع، ولماذا تتحوّل النّوارس غربانًا تحترف النّعيق بلا انقطاع!؟

وصرخت متحديًّا: أتدرين أيّتها الرّياح الجبليّة أنّ أعاصيرك ما عادت تلوي عنقي، وأن ليس لها القدرة على سرقة الذّاكرة من شغاف قلبي؛ فقد فات الأوان.

ها قلبي أمامك مشروخًا، اقرئي صفحاته فلن تعثري سوى على طللٍ رثّ سيبقى ما دام الزّمان.

العقودُ السبع التي عشت قد فتكت بالجسد، وموْتك كان الحدّ، فكيف لي أن أحمله على الثبات وقد غدا كيان جليد أُلقي في قلب الهاجرة لا يستطيع لملمة روحه السائلة على جنبات جسد متهالك.

لا شيء يا ريحانتي يؤذي نفسًا وفيّة مثل الفقد، ولا أحد يقدر على مواساتي في رحيلك لأنّك ببساطة كنت عالمًا استثنائيًّا تعجز كلمات البشر وحروفهم المُنمّقة على تصويره.

أنت قصيدةٌ لم تكتُب، وحكاية لم تُسرد، ونمنمة فارسيّة لم تكتمل منذ قرون، وأنت أوّل أهزوجة صدحَ بها ملّاح تائهٌ من بدء الخليقة ولم يصمت حتّى اللحظة، فهل يُعقل أن تترُكي هذا الخلود وترحلين!؟

يا ريحانة الموت الجاثم على صدري، يا برودة عمّتك وها أنّها سرت في روحي تطلبها، لو كان فيك عرق نابض لصرخ في الموت «خذه إليّ.. أدري أنّي منتهى سكة قطاره وآخر نبض فيه.. خذه يا هادم الحبّ إليّ، أخاف أن ينتفض ترابُ قبري لوعة على لوعته، وأن تغرق عيناي الساكنتان بدموعه.. خذه إليّ يا موت؛ فنحن معًا اكتمال الحكاية وسطر منفرد آن أنْ تُوضع في آخر مطافه نقطةُ النّهاية.

لن أنسى وقوفك إلى جانبي لّما انسدّت سبلُ التواصل مع ولديّ دوسان ويزيد. فقد قلت لي: بقدر ابتعادك عنهما يكون الخسران.

أجبتك أنّهما مَن بادرا، لقد قطع «الدّعاة» عليهما كلّ السبل.. هو الغسيل المولّد لكائنات تُحرّكها الأوامر بلا نقاش.

قلت لي دون يأس: لا تبادل نفورَهما بنفور، اقتحم عالمَهما وبيّن زيفَه، لا تدعهما يسيران في وادي الموت.

فقلت لك حزينًا: أخشى أنّ الأوان قد فات، وأنّ الداء ما منه شفاء.

فألمّ بك البكاء دون مقدّمات وأنت تصرخين: هل من القدر أو

الصدف أن يضيع أولادنا مثل سراب!؟

أجبتك مستسلمًا: ألا تعتقدين في الابتلاء؟

وعقد الحزن لسانيْنا.

مازالت أحاديثك وحواراتنا وقد غطت فراغَ أواخر العمر بعد أن أكلني الصمت لعقود منقوشة حرفًا حرفًا، قد ضمّنتها تجربة عمرٍ فني في النضال ومعالجة أمراض النّفوس التي ابتلي بها الكثير، قلت لي ذات غروب وكنت شديدةَ الحزن «أتدري يا روْحي أنّ المثقّف الواعي والمتبنّي لقضايا الوطن كثيرًا ما يموت قصيرَ العمر لفرط ما يُرهق نفسه دون جدوى، لا أحد يهتمّ لرؤاه أو استشرافه، ينبذه السّياسي ويتندّر بقراءاته رجلُ المال».

فسارعت بالردّ عليك «تلك رسالته.. وذاك عمله، على اعتبار أنّ المثقّف ظلّ ومنذ الأزل مثل حطّاب الظلام يضرب ولا حطب، ولا أعتقد أنّ تغيّرًا سيحدث.

فقلت مستفزّة: هكذا أنت يا روْحي، سرعان ما تقذف فكرتك دون أن تحسن تفكيكها.

ما قصدته من كلامي أنّ المثقف في وطننا وإن حاول لعب دورٍ رياديّ فإنّه لا يجد مَن يسمع كلامه، تصوّر أنّه يحمل همّ قضايا الوطن من جهلٍ وفساد وخلل في كلّ المنظومات وهو نفسه مَن يقف كالحصن أمام زحفٍ أسود آتٍ من خلف الجبال والصحاري

والبحار يستهدف هويّة المجتمع، ولكن لا أحد يُعيره اهتمامًا.

فتماهيت معك قائلًا: إنّ المثقف هو حجر الزاوية، وهو محرار قيس الوعي والنضج وإمكانية الحلم، فإنْ غُيّب ضاعت خارطة الخلاص، وعمّ الضباب واستشرت المتاهات وتعمّقت المتناقضات، فأنت ترى الذي حدث بعد الثورة من دعوات متطرّفة شرقًا وغربًا يمينًا ويسارًا، حتّى أنّها شرخت المجتمع، وطفقت تُغذّي نيران الفتنة وتُذكي لهيب الصراع بعد أن كان الجميع تحت نيْر القهر وسوط المستبدّ.

فسألتني باستنكار: وهل كان للمثقف حضوره وأثره الحقيقي حتى لا نسقط في الفتنة!؟

غير أنّي تفاعلت معك قائلًا: لا أنفي دور المثقف الجوهري، إلّا أنّي أتساءل عن أيّ مثقّف تتحدّثين؟ فالمثقف الذي رأيت بعد الثورة هو مثقف بجلدة السياسي اعتلى المنابر وأخذ يناطح فكرًا وينافح عن آخر، وفاتَه أن يدعو إلى القيم الإنسانيّة العامة التي يؤمن بها الجميع، هذا المثقف نسي أنّه قبل السياسي وأشمل من الإيديولوجي هو محرار الوعي وهو قمّة النّضج وهو المؤتمن على حضارة الشعب والفاعل المحدّد في كلّ أزمنته.. هل كان المثقف بعد الثورة بهذه المواصفات؟

فإن كان المثقف هو نفسه داعية تطرّف واستئصال يسعى جاهدًا لهدم هويّة الشعب والارتماء في أحضان الآخر لأنّه الآخر الذي رضع من ثديه وبينهما عرى وثيقة؛ فأيّ دورٍ إيجابي يُرجى منه؟

قلت معارضةً لي: ها أنّك يا روْحي تسقط فيما سقط فيه هؤلاء حين تستهدف مثقّفًا بعينه، المثقف الحداثي كما فهمت.. وتصمت عن الآخر الذي ينفي بدوره «الحداثة» ويعتبرها غزوًا وشرًّا لا بدّ من محاربته باسم الدّين والهويّة وكلّ تلك الشعارات المغرقة في الانغلاق، فنحن لسوء حظّنا نُعاني من جريمة الانغلاق والتقوقع حتّى الذّوبان في الذّات، ومن جريمة الانفتاح على الآخر والانصهار فيه حتّى الذّوبان في الآخر، ألا ترى أن الذّوبان والاندثار هما النتيجة الحتميّة لكلا الاختيارين، والخاسر الأكبر هو هذا الوطن؟

فالمثقفُ الحقيقي يا روحي لا يقود وطنه إلى محرقة الذّوبان طالما أوْكل له مشعل الخلاص فلا بدّ أن يرتفع بوعي شعبه فوْق هذه المطبّات ويّرافقه في اختياراته الصائبة.

ومع الأسف إلى الآن لم نلمس إرادةً حقيقيّة تُعلي من شأنه. عدا أنّ المثقف نفسه لم يتهيّأ لهذا الدّور طالما بقي رخوًا في بوْتقة الذّوبان التي تحدّثت عنها.

ولم يُفلح في أن يصير صلبًا، يُرسل مفاتيح القوّة والبقاء لشعبٍ ظلّ

لعقود تائهًا في اختيارات عشوائيّة خارجة عن سياق التاريخ والجغرافيا.

سألتك حينها منكرًا «وهل يملك المثقف سلطة القرار؟»

فقلت: إنّه يملك سلطة التبصّر والتّنبيه والوخز بالكلمات وكلّ المحامل المتاحة.. المثقّف يفتح النوافذ قبل أن يظلم الكون، وقبل أن تُقبر الأحلام، ألا ترى أنّ قضايا حارقة ما تزال على الرّفوف مثل الديمقراطيّة والدّين والإرهاب وحماية البيئة والمجتمع المدني والصراعات الدّوليّة. دوركايم عالم الاجتماع الفرنسي حين تفاقمت ظاهرة الانتحار الدّيني في أوروبا بعد الحرب عاد ليدرس الأشكال الأساسيّة للدّين عند العشائر والقبائل باحثًا عن دور الدّين وعلاقته بالتطوّر البشري، فهل ترى أمر الدّين في مجتمعنا قد طُرح جديًّا عدا تلك المشاكسات بين متحزّبين معطوبين، أين علماء الاجتماع والنفس والتاريخ والأنثروبولوجيا؟

وصرخت أعلى: الأرض تجفّ يا روْحي، والحروب القادمة ستشعلها المياه بدل الإطفاء، لم نؤمن مصافي التحلية، ولا نقدر على تشغيلها.. سنعود قبائل تائهة في الجدب نرقب ناطحاتنا تنهار.

قلت لك وقد أصابني يأسُك بالعدوى: وماذا يصنع المثقف أمام نظامٍ مهيمن تقوده أعتى كتائب الإعلام، فحتى مقاييس الإبداع والشهرة أصبحت تصطنع وتسوّق وتعلّب وتقدّم كبدائل

للإبداع، بل ماذا سيصنع هذا المثقفُ المجرّد من أهمّ أسلحته أمام قدرة هذا النظام على خلْق بؤر الفوضى؟

قلت لي ليلتها ودموعُك على أهبة: ترى يا روْحي أنّ اقتناص الثغرات وتحويلها إلى أسباب الاحترابِ الداخلي هو أحدث تقنية لإشعالِ الحروب داخل هذه الأوطان فالطائفيّة والإثنيّة العرقيّة واختلاف الدّين والجهويّات.. كلّها تصلح لمنطلق أوّل رصاصة فتصير الرّصاصة دبّابة، والدبابة طائرة بالبراميل المتفجّرة، والنّار نيران ملتهبة تدكّ الحجر على البشر.

آهٍ يا روْحي، لقد غدا العراق كرديًّا وشيعيًّا وداعشيًّا وعراقًا بلا عراق، أبناؤه جوعى مهجّرون يبحثون عن كفيل داخل الوطن.

ورحت تُلقين أبيات مظفّر النوّاب:

«فيا صمت المقابر في شوارعها الحزينة
أعوي أصيح في لهف
أين العراق؟ وأين شمس ضحاه تحملها سفينة؟
في ماء دجلة أو بويب؟ وأين أصداء الغناء
خفقت كأجنحة الحمام على السنابل والنّخيل
من كلّ بيت في العراء؟
يا إخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمال

لا تكفُروا نعم العراق
لا تبتغوا عنها سواها
هي جنّة فحذار من أفعى تدبّ على ثراها

وأردفت بعد آهةٍ بعمق دجلة والفرات «وها الحيّات قد دبّت وتغلغلت في ثرى العراق، وكلّ هذه الأوطان من المحيط إلى الخليج، وفقست البيوض في كلّ شبر عربيّ، صار العراق محرقة ومقبرة لقتلى الطائفيّة والهويّة العرقيّة، وصارت الأمجاد شظايا لكلّ شظيّة علم وبئر بترول وبندقيّة وكمائن من الأحقاد والكراهيّة، وعمّتك الفوضى الهدّامة، وسرى بين جنباتك الفقر والمرض، ناح لأجلك السيّابُ في شعره المنفيّ:

«أأنت فقيرة تتضرّع الأجيال في عينيك
فهي فم يريد الزّاد
يبحث عنه والطرقات ظلماء
أحدّق في وجوه السائلات أحالها السقم
ولوّنها الطوى»

وظللت تصرخين في يأس « يا عراق، يا دمنا المسفوح، وتاريخنا

المهدّم، من الغرب مغول، ومن الشرق مغول، وبينهما السرطان يسري، لن يغفروا صواريخك دكّت يومًا جبروتهم حين كان العراق يحمل على ظهره عبء القضيّة فجاء الحصار تلو الحصار واشتدّ وضاق حتّى استحال شرنقة وحبل مشنقة ذات عيد مهين، حوّل كلّ العرب أضحية وظلّت الدماء تجرف الدماء والأشلاء مكدّسة على الأشلاء.

يا ويل دمنا الفضيحة ولحمنا المطعون في «أبو غريب» وكهوف البلاد العربيّة تقتات منه الهراوات، وجرى بيع الزنازين حتى الشبع، بينما لم نشبع أبدًا من مائنا وسمائنا، وكأنّ الهوان صار في دمنا وراثة.

قلت لي مسترسلة: اعلم يا روْحي أنّ قبول الذلّ يُصبح أحيانًا من عوامل الوراثة مازال يحضرني ما قالت جدتي شوريّة وهي تصفُ هوانهم وهم مكدّسون في سفينة الترحيل.

قالت: صحيح اجتهد البحارة الأتراك وبعض البربر المرافقين في الإحاطة بنا، ولكنّ الهزيمة حين تستوطن في النفوس تُصيّرها رمادًا، كنّا بلا أرواح وهُم يعدّوننا للنّزول في عالم غريب عنّا وأرض غير الأرض.

قالت «لن أنسى ذلك المسنّ الذي تهدّلت سماته، واغبرّ مرآه، فكان كالمودّع وقد تدلّت بيده حزمة مفاتيح صكّ عليها واهنًا الأصابع، وفجأة شخص نحوي مشيرًا أنْ خذيها، وهو يردّد في

حرقة: هذا لطليطلة، وهذا لقرطبة، وهذا لغرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها آآ.ه. ه.....وما هي حتى أسلم الرّوح والمفاتيح قد صارت بيدي.. أمسكتها وأنا أرجف، كانت ما تزال ساخنة.. رأيتهم يحملونه في لامبالاة، الموريسكيّ العبء أينما اتّجه وقع، أيّ وعي تملّكني وجعلني أتشبّث بحزمة المفاتيح ولا أفرّط بها حتى اليوم، أنا البنت الموريسكيّة المشرّدة إلى المجهول تحمل بيدها مفاتيح المدن الحزينة.. أنا البنت الموريسكية التي قطعت من الجذور وألقيت في ليلة عاصفة في البحر.

ما بين الموجة والموجة يتراءى لي وجهُ أمّي الذي ما عدت أذكر تفاصيله، أذكرها وهي تُهوّن على أبي انهياره عند تلاحق الأخبار عن الهزائم والدسائس والخيانات. لم أكن أدري بالذي يجري تحديدًا، ولكنّ عبارته المتكرّرة بقيت كهزة زلزال في أذني «قسموا ظهورنا، قسموا ظهورنا « ليس أمامنا سوى جبال البشرات علينا الفرار كفئران الحرائق، حتى نؤجّل الموت، حتى نختبر أنواع المذلّة، حتى نرى جذورنا تجفّ وتطير بها الرّياح في كلّ منحدرٍ عايش صبانا، وكلّ وادٍغسل خطايانا، وكل جبلٍ عانق أحلامنا... وينتحب كالثكلى، ضاع كل المجد.

وتتنهّد جدّتي شوريّة قبل أن تتابع «في ليلةٍ باردة موحشة

جاءتني روديسة، والدموع قد غطت وجهَها الطفولي لتوشوش في أذني، أفيقي يا شوريّة.. أمّنا سترحل وهي تعدّ أغراضنا حتى تسلّمنا لمعاريف جارتنا اليهودية، فننجو من جند قشتالة.. لقد سمعتها تواسي نفسها، أضمن سلامة البنتين وأبعدهما عن أهوال البشرات.

وكانت جدّتي يا روحي لا تكتفي بالخبر المقدّس، فتسترسل في التعليق الحرّ وهي تقول «إيه يا أحفادي اللجوء هذا المؤقت المؤبد، ابن الخيانات الشرعي، عنوان الهزائم عبر التاريخ.

لقد ماتت جدّتي وهي تبكي أجدادها، وطاعون الهزائم مازال يسري في الأجيال لم أستطع نسيان حزنها وهي تتأمّل مفتاح غرناطة، وقد أكله الصّدأ وتبحث له عن مخبأ آمن داخل صندوقها، كانت تختلي به تُسامره تغازله تستنطق صدأ أحزانه، وتسأل «أين دمي، أين ذاتي، تذكر أسماء أجهلها وتعدها بالزّيارة لتطبيب الجراح قريبًا، وتعوي بي» اسمعيني صهيل نزار في غرناطة هات يا ابنتي هات.

فأضعُ لها الشريط بصوته المتهدّج الحزين:

ورأيت منزلنا القديم وحجرة كانت بها أمي تمدّ وسادي
ومشيت مثل طفل خلف دليلتي ووراءي التاريخ كوم رماد
قالت هنا الحمراء فخر جدودي فأقرأ على جدرانها أمجادي
أمجادها؟ ومسحت جرحًا نازفًا ومسحت جرحًا ثانيًا بفؤادي

وتظلّ عينا جدتي مغروستيْن في السماء يلفّهما ألم الكون.

وكـان يحزنني المشهد، فـأروم تحويل اهتمامها فتصرخ بي «المفاتيح.. أجدادك.. احترمي الذّكرى إنّهم لم يعرفوا للراحة سبيلًا، ظلّت الترب منتفضة تحت رفاتهم.. في ظلمة الليل يسرّون لي في حرقة عذاباتهم المدفونة في الأديرة والكنائس.. انبشوا الكنائس: نزيفهم يا ابنتي أنهار من الدم والخيبات لا تجفّ، مَن يضمّدها؟

فأجيبها وقد فاض بي اليأس: وهل ضمّدنا جراح الحاضر حتى نُقلّب الماضي؟

فتردّ واثقة «جراح الحاضر من الماضي مولدها كيف نستقيم ونحن واهنون.

كانت حين تنبسط في الحكي وهي تعيد وصفَ مرافقهما التركي، تقول: «كان لا يغادرنا، حريصًا على الاهتمام بنا ما حدا ببعض الموريسكيات إلى القول ربّما كنّا أميرتين فشاع الأمر، وصرنا محطّ أنظار المرحّلين.. لزمنا الصّمت، كنّا صغيرتين كبرعمي ياسمين، آلت بنا الرّحلة إلى الذّبول والانزواء تملّكنا الضّياع ونحن نستمع إلى أحد الملّاحة يتكلّم قشتاليّة صريحة مخبرًا أنّ الرّياح قد حوّلت وجهتَنا، فقد كنّا نقصد شواطئ تونس أوّلًا لإنزال مجموعة موريسكية تجيد صناعة الشاشيّة طلبها باي تونس حينها، وإذا الرّياح قد دفعتنا إلى سواحل

الجزائر وختم في لامبالاة كلّهم.. إخوانكم احمدوا الله على النّجاة. علّق أحدهم «في التشريد لا تهمّ عناوين اللجوء طالما التيه واحد».

وتستطرد الجدّة في حرقة: ضيّعونا يا ابنتي، وكنّا مهرة مبدعين.. لقد بنوا للموريسكيين من صنّاع الشاشيّة سوق الشوّاشية بالقرب من جامع الزيتونة المعمور على عهد حمّودة باشا الحسيني، وقد أصبحت هذه الحرفة محرّكًا اقتصاديًّا. كيف لا.. والشاشيّة تجول في مراحل صنعها «طبربة» و«العالية» وزغزان» ثمّ تونس.. أليست الشاشيّة في أنامل صانعيها وتجوالها موريسكيّة با متياز؟

وتواصل معتدّة: بل هي رمز السلطة والعراقة، ومن البايات مَن يلبسها مطرّزة بالذهب.. إنّها تاريخ وليس مجرّد قبّعة.

وظللت يومَها ريحانتي تنقلين عن الجدّة، وتتألّمين كمَن دسّوا في جرحه ملحًا.

واشتدّ وجعك، فخفت أن تعُودك نوبات الغضب كلّما كشفنا عن بعض جراح الأوطان.. نوبات تترك جسدك معنّى لأيّام لا يقوى حتّى عن الحركة.

وبقيت في سرّي أبكي قلبك الصغير، قد تحمّل أرزاء أوْدت بنبضه لولا تلك الأقراص التي تدفعين بها إلى جوف عافَ الأكل.

وها أنّ القلب قد سكت الآن. ابتلع همومه ورحل متعبًا جريحًا

مكسورَ الخاطر لم يُسعفه لقاؤنا آخر العمر بالشفاء، وقد غطّت شراينه المحن، وهزّت عروشه أهوال تُركّع الجبال.

رحلت في الزّمن الوغد، ودماؤنا على كلّ سفحٍ ومنحدر، اسودّت لها الصحراء واحمرّ بها المتوسّط.

رحلت زمن النّحر والحرق والبراميل تسقط بدل الخصب من السّماء وأكل الإخوة لحم الإخوة أحياء دون أن يكرهوه.

رحلت في زمن كلّه وجعٌ وهزائم، واستحالة الربيع إلى جدب وخريف أحمر حزين.

رحلت يا أغلى الأحباب وتركتني وحيدًا مع الفجائع ويُتم أطفالنا وعُقم رجالنا وضياع النّساء في التشريد والمخيّمات يسألن بأجسادهنّ فتات الحياة.

رحلت قبل أن تبصُقي كما اشتهيت في وجوهِ كلّ الخونة باعوا أحلامنا في غدٍ بلا ذلّ أو فقرٍ أو خوف مقابل عروشٍ بدأت تتهاوى أمام خطّاف ما اعتقدناه الربيع وعبق الياسمين.

رحلتِ في قلب الحلم وارتدادات الكوابيس.

لماذا تركتني في غرف مظلمة لفظت مفاتيحها الزّائفة؟

(11)

تصدير:

أنا أشهد | بأنّي دُخت في المشهد | وأنّي لم أعد أصمد| أمام ساحر «المعبد» | وكلّ الساسة مكرُ| ورأي الشعب مستبعد| وحلم الشعب... مستعبد.

بحري العرفاوي

البُهرةُ

وقد بلغت من العمر عتيًّا، عقود سبعة ونيف، ولم أشهد ليلة بهذا الهوْل، نحيب من كلّ فجّ وسيول تدكّ الحيطان وتلطم وجهَ الأرض لطمًا. والحرب بين الريح والزخّات سجال والرّعود تدكّ السّماء دكًّا، والظلام مقيم، ضيفٌ ثقيل مؤذن بوحشة سرمديّة. ظلام تخطّى البُهرة وأملها في قليلٍ من الضياء، فكيف أبدّد ليلة الأعوام هذه؟

كيف وقد كلّت وسائلي وسبلي، وأيّ قدرة لي على الخطو شبرًا إلى الأمام.. سمّرني الحزن هنا، والآن وعند مفترق عمرك.. فلا رغبة لي في هامش من الحياة بعدك.

أحيانًا يحلّ بي ما يشبه الجنون، وتُداهمني أسئلة خارجة عن السياق فأهذي «يختار البشر تواريخَ الزّفاف والأفراح، ماذا لو كان لهم حريّة اختيار تواريخ النّهاية والأتراح، هل كانوا سيجرؤون على الاختيار والقبول بالتنفيذ؟

غير أنّي سرعان ما أستردّ عقلي وألعن الهذيان ودمار الرّوح حين يستوي لديّ الإيمان واللاإيمان، وأصبح مدلّى في عالمٍ من التيه

والفراغ لثوانٍ ثمّ تخزني الحقائق وخزًا سرعان ما يُلقي بي في عوالم اليقين والسكينة والرّضا بالمسطّر سلفًا ومنذ الأزل.

وأهجر حيرتي نحو وُرود الذكريات التي أسّست مسافةَ أمان عمريْنا حين عدنا والتقينا، كان يحلو لي وضع رأسي في حضنك بحثًا عن أمّي فيك وعبق الشعور بالسكينة حيث لا شيء يُمكنه أن يُفزع أحلامي الصغيرة والنّهائيّة، أذكر لمّا قلت لي حازمة «اخترْ بين الطفولة والوعي إذْ هما لا يجتمعان»

بدا كلامك مُلغزًا غير أنّي عملت على استنزاف عطفك، وكنت أحتاجه فأجبتك: «الطفولة».

فعقّبت «إذًا.. لا تتجنّ على عمرك وابقَ في المرحلة «الفمّية»، وانتظر موعد الرّضاعة».

استفزّني قولك، واستقمت جالسًا في انفعال «أيعقل أن أكون رضيعًا في نظرك بعد أن احترقَ سواد الرأس، ما العيب في الجمع بين حنانك وحديثنا في السياسة؟

قلت والهدوءُ يعلو وجهك «كنتُ كرهتها السياسة يا روْحي، هي لا تعترف بالحبّ ولا العواطف والنّوايا الحسنة.

هي أمّ الخبائث وربيبة المصالح والنوايا «المقرفصة»، والحديث فيها قد يصل إلى مرتبة منقضات الوضوء، وأنا على أهبة صلاة، دعْك منها فقد ذهبتْ بشطر عمري وبقيّته أخذت في التآكل دون

أن أبلغ مطمحي، بها فقدت ألقَ الرّوح والذهن الصّافي والجسد في ضمور منذ أن اخترت «الوعي»، ليتني ظللت طفلة لما بسطت السياسة لحافها الحربائي عليّ، ولما اهتزّ القلب غضبًا وصدمة ويأسًا وأنا أشهد تحوّلات جذريّة مسّت صميم مَن قضوْا العمر بين قهرٍ وقهر، ومعتقلٍ وسجن ومطاردة، ومنعٍ وتهجير وتشويه، وهم يعضّون بالنواجذ ويُمسكون بجمر الإيمان والمبادئ، أرى الشيطان في نظرات بعضهم وأكاد أشتمّ النّتونة فيما ينطقون، وأتخيّل كمًّا من المفاسد وسمت أعمالهم.

ثمّ أردفت متسائلة: أتذكر يا روحي أستاذ التاريخ أنور جعفر، زميلك وأستاذي، كان معارضًا شرسًا لا يتورّع في الحصص على نقد الساسة واستبدادهم فيما سُمّي بدولة الاستقلال، وكان كثيرًا ما يُردّد علينا ما يشبه الحكم فيقول «السياسة والكراسي لها السّحر كلّه وقدرة على الهدم وسرعة في البناء المغشوش، بهرج وثرثرة واندفاع إلى الأمام والفوق، ولهاث لا يتوقف.

ليس هناك مِن محطة لمثل هذه القطارات تطأ وتمضي ولا عزاء للضحايا.

وكان يرفع الصوت ساخرًا «خريفنا لا ينتهي يا أبنائي، أُعوّل على وعيكم بأن تجلبوا إلى مواطننا خصب الربيع.

فهل كان متنبّئًا، أم هو يحفر في بحرٍ خاصّةً عندما لم نقف على

نقلات نوعية بعد قدوم الربيع؟

أليست السياسة فنّ الممكن من الخبث؟ لا عزاء لنا وللحفاة يدوسون الأشواك وحصى المسارب في قلب الصقيع لمّا تتجمّد المياه وتعوي البطون من الخواء والذئاب المنفردة من الوحشة والصقيع.

فأجبتك يومها: لا عزاء للمفقّرين، فالزمن للحيتان والمتسلّقين السائرين بعيدًا عن طرقات الوطن وثناياه المؤدّية للحريّة والكرامة والحياة والموت من أجله.

ذاك الذي وقفنا طوابير ونحن نصرخ به.. نموت، نموت.. ويحيا الوطن.

ثقْ أنّنا «نحن الوطن

من بعدنا تبقى الدواب والدمن

نحن الوطن

إن لم يكن بنا كريمًا آمنًا

ولم يكن محترمًا

ولم يكن حرًّا

فلا عشنا.. و لا عاش الوطن»

ها الموت حقيقة مثل الوطن، وها البسطاء يموتون فقرًا وذلًّا

وإضرابًا وحشيًّا وصدورًا عارية أمام «آربجي» الشّعانبي وكلّ نيران الحقد الأسود.. وها آخرون يحيون على موْت أولئك وتضحياتهم وهُم يصدحون في المناسبات بهتانًا «نموت نموت ويحيا الوطن»

صدّقوني لا أحد منكم يقبل الموت من أجله.. موتكم سيكون على حين غرّة بجلطة في الدّماغ المصدوم من التحوّلات الجذريّة فيكم، وبسكتة في القلب وقد تهيّأ للنّقاء سنين فلم يحتمل دمكم المُلوّث، موْتكم آتٍ بالتأكيد غير أنّه سيكون فاقدًا للشرف وللخلود لأنّكم ما هيّأتم طرق تأبيده.

حاولت حينها استفراغَ قهرك بالحكي وإخراج حُرْقتك حتّى لا تنغرس الآلام عميقًا في نفسك، فدنوت منك في حنوٍّ عاشق وأنا أسأل: كيف أمكنك استبدال حبّ كالنّبع الرقراق بخبثٍ حرباويّ لا يُورّث إلّا قهرًا، حدثيني عمّا كان من تجربتك.

فبادرتني بحرائق من الآهات وأنت تقولين: لم نرتقِ يا روْحي بعد إلى المأمول، مازلنا نخبط، وأخطاء المسئولين الحزبيين كثيرة، تنقصهم الخبرة والأساس الفكري عدا أنّ العقليّة ظلّت رجاليّة كما في المجتمع، فالمرأة في الأغلب ديكور تُزيّن به المحافل والمنصّات.

قلت لك: لا تنسيْ أنّ الثورة قلبت الدّنيا على رأسها، حدث مثل الانفجار وغاب العقل وعمّت الفوضى فقد وجدنا أنفسنا

بعد ثورة وشهداء وجرحى أمام تلفيق ممجوج بين قديم منخرط في الاستبداد إلى أذنيه ومعارضة متنافرة، وآخرين مهادنين حتى العجز، أين المحاكمات؟ أين المشانق التي ذكرت يا ريحانة في الثورات عبر التاريخ؟

قلت لي في هدوءٍ مفتعل: الكلّ يتخبط ولا مخارج لمشاكل موروثة منذ عقود بل قرون، أحبّك يا روحي، وأريدك أن تظلّ طفلًا يؤذيه القتل وترعبُه المشانق.

فحين أنظرُ في عينيك أعرف فداحة ما فعلت بك... وبي.. أتخيّل عينيك ووادي الدّموع في الليالي الحزينة وأنت تُقلّب صوري ورسائلي المتّقدة، تتحسّس حرارتها ولهفتي عليك فيها، ثمّ تذكر الرسالة المقصلة التي جاءتك تُعلمك أنّ الوطن أخذني منك إلى أولئك المعبّئين تضحية الذين سيكونون مع المظلوم ويجوعون مع الفقير ويرفعون الرّاية الحمراء بيد لو قُطعت الثانية.

وفرّطت في طفولة عينيك، ولم أكن أدري أنّي كنت أسوق عمري إلى شيخوخة المكائد وزبَد الشعارات وسراب من التّعهدات، فالسياسة لا تحمي مَن نظمت شعرًا وصدحت به ونامت وهي تحضن القصيدة خوفًا من ضياع الأحلام فيها.

حضنت القصيدة، وضيّعت طفولة عينيك، فسارع إلى قلبي

الهرم، وتفكّكت أبيات القصيدة وصارت جملًا منْثورة، نُتفًا من الأعجاز والصدور لا عمود لها ولا من يُقفيها، أضحت كلّها عللًا وزحافات وجوازات وتجاوزات.

هي الخُنثى والله فخلعتها بالثلاث.. وكسرت قلمي ثمّ بكيتها وطفولة عينيك وقد ضيّعت درْبها نحوي في زخم القطارات الرّاحلة على سكك من أوراق التوت تترنّح في البراري المتوحّشة.

آهٍ يا روْحي كم الخيبة الآن؟

أجبتني ساخرًا «خيبتان ونصف، واحدة لك والأخرى لي، والنصف لابننا الافتراضي «مُهيب»، لا تنسيْ أنّنا التقينا في زمن جفاف الينابيع وانحباس المطر وحلول مواسم الصوم والنوم المفاجيء والاكتفاء بالتخيّل والتمنّي وتحسّس ستائر العجز.

ضحكنا ليلتها كما لم نضحك أبدًا، ثمّ عمّنا صمتٌ هو النّحيب عينه، حين تألّبت علينا ذكرى التّيه والعذابات لمّا انسلخنا قهرًا عن بعضيْنا وافترقنا في بدايات حرائقنا، واشتدّ وجعنا لضياع الأبناء في دروب الحياة القاتلة.

اندحرت يا روْحي في صمتك وحيرة السؤال، وركبتُ أنا عاصفة «النّضال»، فأخذت تهزّني ثمّ تردّني وتُطيح بي في سبل بلا قرارٍ أو عنوان، فاكتويت بالنيران الصديقة قبل نيران العدوّ، غير

أنّي تحاملت على حروقي ومشيت في غبش المسارب الموحلة، تعلوني الأعباء والخيبات وحماقة السؤال عن المآل وحماقة الإجابة الفاشلة، فالوطن ظلّ مرميًّا في ظلمة المستبدّ، مركّب في عيْن عاصفة هوجاء، ومِن حوله قراصنة العصر من النّهّابين والجهلة والصّائدين جورًا في خصبه مِن باعة الحروف وماء الوجوه.

لقد باعوا يا روْحي واشتروا.. فتعمّقت هشاشةُ الوطن وخسرنا معًا حبّنا، وربحنا عمرًا من الألم وخيبيتيْن ونصف.

(12)

تصدير:

أيّها المراؤون توقّفوا عن الدّفاع عن اللّٰه بقتل الإنسان، ودافعوا عن الإنسان كي يتمكّن من التعرّف إلى اللّٰه.

جبران خليل جبران

السّحرُ

آهٍ يا خيبتي الأخرى، هذا السّحرُ حين أجد نفسي مجمّدًا من الصقيع، ومِن تفعيل صفتي كزوج بعد أن عاهدتك بكتْم عشّنا عن كلّ البشر، قلت لي يومها حزينة «فُقِدَ (أزد وألمع) في تلك الحادثة الفظيعة قطعني من شجرة ولم يبْق لي من صلة غير بعض الأقارب الأبعدين سأزورهم حين أستشعر منيّتي.

عشت يُتمًا تاريخيًّا وبيولوجيًّا وثكلًا آت من عنصريّة متوحشة.

واسترسلت قائلة: يوم قرّر ابناي السفرَ إلى إسبانيا صُعقت، لم أتخيّل أنّنا قد ننفصل، كان «أزد وألمع» قريبيْن إلى قلبي، أذكر ليلة أن بزغ فجرهما.. فرح غيث البارودي أبوهما فلم تسعْه أرض ولا سماء، لم يكن قد سافر بعدُ في التيه، ولا طلّق الحياة.. حلمنا ليلتها بهما معًا.. ازدحمت في أذهاننا الورود بالأنوار وانفتح الأفق.

قلت له، وبي بقايا خدر: لن نُفرّط في الفرح بهما، سنثبت للعالم أنّنا على قدر التّحدّي، وأنّ الاستبداد في هذا الوطن الجريح لن يقف حائلًا أمام نبضات القلوب وطموح مشروع ورحيل نحو غدٍ حرّ، ووعي يسري في الدّماء، نورّثه للأبناء، فنبني أجيال المشاعل

والانعتاق والضياء، سنصمد يا «أبا غالب»، وكان يُجبّذ مناداته باسمه الحركي تعميقًا للانتماء والمسئوليّة.

كان شعلة لم أعتقد في انطفائها كما حصل، وبدأ يا روْحي يتسرّب من الحياة قطرة قطرة، وشرع العجز والإحساس باليأس يملآن كلّ شبر في كيانه، أخذت صلاته بمن حوله تتقلّص، وغموضٌ لعينٌ يسم أقواله وأفعاله، وكثر انزواؤه.

فيما الولدان يشبّان ويستكشفان ما حولهما.

وكنت منهكةً أبحث عن توازنات لا يشعران بعدها بفجوة انسحاب الأب.. اجتهدت في رفع اللبس عن المبهمات والأسئلة الحارقة والمقارنات الأسريّة والاجتماعيّة القائمة أمام ناظريهما.

كان كلّما انفتح بيننا حوارٌ يسمعني نفسَ الحجج القديمة وذات القراءة «نقمة على قادة التنظيم في التسعينيّات، فهم لم يقرؤوا الواقع السياسي، ولا استعدّوا لما تطلبه المواجهات مع نظامٍ قمعيّ شرس.. وأنّ الاستشارات لم تحصل، وأنّ التفرّد في القرارات كان طامة أوْدت بعمل سنوات، وجيلٌ من المناضلين قد انفصمت عراه.

فشلت يا روْحي في إقناعه بأنّ قرار «تجفيف المنابع» قد اتخّذ، وأنّ المستبدّ كان أقدر على التخطيط والتزوير والتنفيذ، وأنّه استعان بالمتأدلجين واختلق معارضة كرتونيّة، وهيّأ المجتمع الغربي المرعوب

من الإرهاب لتقبّل ما سيمارس من قمع للحرّيات واستئثار بالحكم وتوابعه بحجّة وقوفه سدًّا منيعًا ضدّ الإرهاب، وقد غدا على مشارف حدود الغرب وأمنه ومصالحه الاقتصاديّة.. واشتغلت آلة إعلام جحيميّة في نفس الاتجاه، ولم يكن بالإمكان أحسن ممّا كان.. ألم تُقدّم له فروض الولاء والطاعة من قبل جلّ المعارضين على اختلاف مشاربهم؟

إنّ السيف قد سبق العذل، وقرار «تجفيف منابع معارضيه» أُتّخذ، ولا مناص من الاستئصال.

قلت له: الاستئصال يا «أبا غالب» سرطان يسري ما إنْ لقح في مجتمع استفرغه فلا يُورّثه غير الدّمار وألوان من الأحقاد.

كنت كمَن ينفخ في رماد، أو يسقي رمالًا سنة قحط.

وعادة ما ينتهي حوارنا بهروبه إلى النوم أو التيه في شوارع المدينة وثنايا الحقول المجاورة.

كم قلت له إنّ الولدين يطلبانه، وإنّ انزواءه وقسوته قد تبني حائطًا إسمنتيًّا بينهم، وإنّ العواقب ستكون كارثيّة.

كلّما احتجناه أوصدَ الأبواب بيننا، راحته في وحْدته، وظلّ نقصنا لا يُسدّ، والشروخ بيننا تمتدّ بحجم السنين والأيّام والليالي التي عشناها ممنوعين من دفء الأب والزوج وحضن الحبّ والودّ،

تعمّقت الشروخ وتعفّنت الجروح فصار بيتنا مقبرة رغم محاولاتي زرع الحياة، أعيتني اللقمة ومرافقة الولدين أواكب تطلعهما لحياة ملؤها الحياة، في بيت موات، بيت المناضل «الضحيّة» التي أحكموا حولها الأقفال، وحوّطت نفسها بأسوار اليأس والشكّ والخوف والغرابة والصّمت المميت.

في ذهن الولدين بعد أن شبّا نبتت فكرةُ الهجرة، وكبرت حتى أضحت هوسًا لا علاج منه، كنت في محاولاتي اليائسة لثنيهما أنهي الحوار منهارة، وقد قرّرا الرّحيل.

لقد اختارا- عن وعي مسبق- دراسة اللغة الإسبانيّة؛ استعدادًا للنّبش في الماضي فقد أترعت مخيّلتهما بكتب التاريخ والحضارة التي بناها الأجداد، كان حضور الجدّة شوريّة وجواد الغرناطي وفيحاء بنت المستنصر الدمشقي واليهودية معاريف وغيرهم؛ لافتًا في فكر الولدين.

كنت يا روْحي أزرع فيهما ثقةً افتقدتها الأجيال برفع تحدّي القدرة، ولم أكن أدري أنّ تحريك السّواكن سينقلهما بتلك السرعة من مستوى التلقّي إلى مغامرة الفعل.

لقد قال لي ألمع ذاتَ ليلة ونحن نناقش بحدّة موضوع السّفر: أيعجبك أن نعيش تناقضًا مؤلمًا بين الوعي والممارسة، نحن نؤمن أنّ

القضيّة الموريسكيّة واحدة من القضايا الحارقة، وأنّ إثارتها باتت أمرًا ضروريًّا، لا بدّ من معرفة ما وقع إبّان حرب «الاسترداد»، ألا ترين أنّ ما حصل يرقى إلى مجازر حقيقيّة، وفيه اختراق لأبسط القوانين البشريّة التي لا تسقط بالتقادم!؟

لا بدّ من نفض غبار النسيان عن دفاتر محاكم التفتيش القابعة في الكنائس والكاتدرائيّات.

كلّ الماضي قابل للتنقيب يا أمّي، لا شيء محصّن، المهمّ اعتماد الدّقّة والموضوعيّة والنقد التاريخي، فإذا كان بعض المستشرقين ينكبّون اليوم على سيرة الرّسول لإعادة قراءة الغزوات وعنونتها مثل تسميتهم «مجزرة بني قريضة» وإذا رأيناهم ينبشون وثائق مفتعلة بحثًا عن تهمٍ بمعاداة السّامية على عهد عمر بن الخطاب فيما سمّوه «الشروط العمريّة»؛ لمَ لا ننبش التاريخ الواقع حقيقة؟

التّنقيب يا أمّي يشفي الجلّاد والضحيّة.

لقد عزما على الرحيل، وتركاني يا روْحي وحيدةً مع صمت الحيطان وصمت أبيهما وموت يعاشرنا مكشوفَ الوجه لا صوت أو جدال لا طعم لنوم أو أكل أو حتى بكاء، تساوت المشاعر وأصبحت الحياة تعدل الفناء.

كرهت البيت وحيطانه، وروائحُ النّهايات تنبعث من زواياه..

وانفجرت عيناك دمعًا كما اللهيب.

ذكرني موقفك من البيت حين التقينا وبدأنا نعشّش العش المستحيل، ورحنا نبحث عن بيت يستجيب لمواصفاتك الغريبة، قلت لي «ريّحني يا روْحي، أريده منعزلًا عن العيون، محلّقًا فوق قمّة جبل يطلّ على الشروق، نوافذه أكثر من حيطانه لأنّها تردّني إذا هممت بالوجود، تخترقه الرياحُ من كلّ صوب، وليكنْ حضنك مدفأتي في فصل الشتاء هذا ما أطلب.

تقطّعت بنا السبل حتى عثرنا على بيتٍ أسعدك، كان على ملك أحد الرسّامين المهوسين بدلالات المكان مثلك، قيل إنّه قد هجره بعد شيخوخة فانية، وأوكل أمره إلى قريب، وظلّ مهجورًا لبعده عن السابلة وعزلته المريبة، يجاوره عن بعد كوخ بدائيّ لأحد المتصوّفة، معتكف به لا يكاد يغادره، وإن فعل فلعيْن ماء في جوف الجبل يقضّي حولها الليالي. وبمرور الزّمن صرت تصرّين على أنْ أستدرجه خارج خلوته ومحاورته، فكان لا يستجيب إلّا لمامًا.

قلت مرّة في حضرته: إنّ المتصوّفة وعبْرَ التاريخ قد لجؤوا إلى الجبال والكهوف، فهل هو الهروب من عالم البشر؟

لازم صديقنا المتصوّف الصمتَ، وظلّ يردّد ما لم نسمع من همهمات.

فقلت لك: الجبل في المتخيّل الجمعي مركز الكون وسرّة الأرض

في القصص الديني وحتى الأسطوري تجلّى الإله في ذروته، فعلى قمة الجبل كلّم «يهوه» النبيّ موسى وألقى عليه وصاياه، وفي مغارة الجبل تجلّى المسيح في وجه أقرب تلاميذه، بل بالجبل أقسم الله في آياته، أليس يصبح للجبل قدسيّة يجتهد المتصوّف كي يعيش في كنفها؟

لم يحرّك صاحبنا ساكنًا، وكأنّنا نخاطب الحيطان.

وحتى نبعد عن جلستنا الملل وانصراف «أبي منيار» عنّا؛ قلت لي: لهذا ما وجدنا غير الدّير والكنيس والزوايا عند الروابي والجبال في عزلة تامة، ولم نعدم الكهوف والعيون الجارية على اعتبار المغاور أرحامًا أموميّة أصليّة يواجه الوالج فيها ظلمة اللاوعي ويحلم بالتجدّد والانبعاث ليخرج إلى النور، فهل هذا ما قصد أبي منيار؟

ضحكتُ حينها لصمته الغريب، ودعوتك للمغادرة وأنا أقول لك: إن كانت العيون بمياهها الجارية المتجدّدة يتّخذها الأولياء في سياحتهم كطقوس عبور تُطهّر الأجساد من أدرانها والنفوس من شوائبها، فهل كان اختيارك لبيتنا هنا في هذا الجبل طقسَ عبورٍ إليّ؟

قلت لي في شرود: لا تنسَ يا روحي أنّي كنت فعلًا محتاجة إلى طقس عبور يلجُ بي إلى حياةٍ أخرى، ومشاعر أخرى تقطع مع دمار هدّمني، أنا الوحيدة الثكلى، الفاقدة لكلّ سند غير ستائر من الحزن والمرارة، غُلّقت حولى كلّ الأبواب سوى نافذة من عالم افتراضي

أفضتْ بي إليك يا روحي، نافذة القدر الذي أحيانَا بعد عقود ثلاثة، فأحببت أن نرتقي إلى هذا الجبل ونعيش الحياة والحلول والأفول بعيدًا عن عالم الناس المروّع.. كرهت البشر يا روحي.

وكان حين يشتدّ وجعك وتسيطر أحزان الذّكرى؛ أسعى في طلب الرّجل، كنت أدري أنّ عالَمه الصامت الغريب يأسرك ويبعث فيك انشغالًا وبعض طمأنينة. أذكر ذاتَ مساء أنّنا قصدنا إليه، وقبل أن نلجَ جاءنا صوتُه بالذّكر قد تجلّى يردّد «سبحاني، ما أعظم شاني» فأمسكت بي وأنت تقولين: عدْ بنا، لن نقابله الليلة، تراه قد بلغ من الاتصال مداه، دعه لكشفه وارتحاله إلى الله، لا تقطع خلوته إلى حين جلوته.

فقلت لك مازحًا: ملعونتي العميقة، لم تتأخّري كثيرًا عن الإلمام بعالمه، أعلم أنّك لا تمرّين بجانب المسائل مرور البسطاء.

فقلت لي ضاحكة: التصوف مذهبُ الحبّ بامتياز، فيه من الصّفاء ما تحتاجه أرواحنا الملوّثة، ليتنا تصوّفنا لمّا افترقنا.

فعلّقت: ولكن بعضهم جمحَ عن قيد الشريعة والعقل، أتؤمنين بالكرامات؟

فاكتفيت بقول الحلاج «لو علم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا بالسيوف».

وختمت «اغمرني يا روْحي بي كما القشعريرة» وظللت تردّدين

«سبحانه ما أعظم شانه.. سبحانه ما أعظم شانه.

أذكر أنّنا حين عثرنا يا عمري على بيتنا الجبليّ رأيت بريقَ الفرح في عينيك، اقتربت منّي وهمست لي «فيه، سأكتفي بك.. ولن أكتفي منك».

فهزّني الوجد، وتناثرت دمعتان وأنا أعقّب «مَن يردّ عقارب العمر ثلاثين سنة إلى الوراء؟»

وكيف نباشر عيشا نحن في آخر أشواطه، ألم تعلمي أنّ الزمن سيفًا أوشك على قطعنا بل قد فعل، وما يُعذّبني يا ريحانتي أنّنا ولجنا إلى عالم افتراضي وقد يُرهقنا التخييل ومحاولات التّحيين ونبش الملفّات المخبّأة في ذاكرة متعبة.

فقلت لي منشرحة: سأدعو المكان يا روْحي ليكون شاهدًا على اعترافي بأنّي ما أحببت سواك كلّ هذه السنين، وأنّ ذكراك ظلّت حائط أسمنت فصل بيني وبينه.

وأنّ هذا الزّاد مِن العواطف بيننا كفيلٌ أن يجعلنا نعيش بقيّة العمر دون حاجة إلى ماء أو غذاء.

فقلت لك متوجّسًا: هي موْتة أخرى إذًا أصبحت تُخطّطين لها بعد أن هجرتني من ثلاثين سنة، وكانت موْتتي الأولى، سأكون واضحًا فأنا تُغذّيني العواطف بلا شكّ، ولكنّي لن أدخل إضرابًا

وحشيًّا؛ فلست ممّن يتطرّفون تُجاه الحياة برغم غدرها. فهزّت جسدك النّحيل عاصفة من الضّحك.

فرحت أنت بالبيت وفرحت بحلم كان محسوبًا على السّراب، وسبحت بنا الأيّام فراشتان على حقول من النيلوفر وشقائق النعمان وسيوف الغربان.

أعجبُ يا ريحانتي كيف قدرنا على الحياة في ذاك الشتات!؟ كيف لم تفنَ فينا الأنفاس، ويندحر هذان الجسدان إلى ما تحت التراب؟!

فأجبتني: أكانت تلك الحياة حياة، ولعلّها لم تُكتب في السجلّات، كلّها دموع وحسرة وليل وآهاتٌ ودعوة المشاعر إلى عالم من النفاق، عمّق عفنها وعجّل بانتحارها على جنبات الرّوح.

أرجوك يا روحي، خذني إلى الحاضر، وابْنِ معي أيّامًا قليلة في المستقبل؛ ففيها يكمن الشّفاء، ولنبدأ برأب الجراحات.

أوجعتني الحياةُ يا روْحي، ومنّي أنا كان وجعك، أقولها لآخر العمر «سامحني وتجاوز فإنّي ما دريت أنّ التضحية بالنفس أهْون من التضحية بالحبّ، وأنّ المشاعر الصادقة لا يسدّ نقصها شيء في هذا الوجود.

قد سخرت والله من حالات مزريةٍ أتى عليها الشعراء يصفون لوعة الفراق وظننتها مبالغات قبل أن أكتوي بسعيرها، اعتقدت يا روْحي أنّ الانكباب على مشاغل الحياة وقضايا

الأوطان مخرجًا مثاليًّا وضروريًّا لزجر شهوات النفس ونبض الفؤاد غير أنّ الواقع كشف لي أنّ إهمال الذات وتجاهل عواطفها قد يصمدُ لحين، ولكنّه سرعان ما ينفجرُ بتعبيرات مختلفة، حتى النّقيض أو هو يتشكّل في صورة أمراض نفسيّة وعقد وممارسات شاذّة ومخفيّة حفاظًا على السّمت العام والصورة المزيّفة التي يُراد تسويقها.. والخواء يملأ الداخل والأجساد شياطين، تُعشّش في الأذهان أساطير من الخبث والنفاق وأطنانٌ من الشهوات المكبوتة يبحثون عن تصريفها بألف طريقة.

أمام حضرة الشهوات تهرب المبادئ، وتذوي إلى حين حتى المقدسات.. وتختفي الصورة المثال، وتصبح مُركّبة، لا أصل لها؛ فالأصل متوازن يبني حقيقة الإنسان الجامع جهرًا بين الدين والدنيا، بين نفسٍ أمّارة بالسوء ونفسٍ خيّرة، والإنسان بينهما في جهاد فلا تميل الكفّة لأنّ ميلها بداية الخَلل، وتشرع العقد في التوالد ويشرع الإنسان في التحوّل نحو قطبيْن متطرّفين.

وأنا يا روْحي، رأيتهم كلّهم متطرّفين، وعلمت أنّ التطرّف لا ينحت إنسانًا بل خرابًا من البشر، وخرابًا من الأوطان، وها قد فعل.

تنهّدت وأنت تُؤكّدين: التطرّف لا يلد إلّا تخلّفًا.

فقلت جازمًا: إذا عشّش في الفكر ترجمه السلوك اللّاسويّ،

وعبّرت عنه مشاعر الحقد ونفي الآخر.

فرددت واثقة: عنّي أعتبره مرضًا معديًا، وهو كامنٌ فينا، يبدأ من البيت فالمدرسة وصولًا إلى المجتمع والفرد الذي ينشّأ على الصوت الواحد انتظر أن يصبح وعاءً تسكب فيه مضامين الكتيبات الصفراء حول مسائل صمّاء في الدين، تختم بتأكيد من مشائخ الظلمة وفقهاء الموت، وقسْ على ذلك كلّ فكريّ أحاديّ القراءة، دغمائيّ الهوى، فهل تجد فرقًا بين الإرهاب المسلّح والإرهاب الأيديولوجي، كلاهما إرهاب دعامتاه التعصّب والكراهيّة.

أجبتُك حينها: هنا تكمن أدوارُ المثقفين ليكشفوا المرضو ويُعرّوا أصحابه، ولا تكلّميني عن السّاسة لأنّهم في المطلق يحملون بذورَ المرض خلايا نائمة سرعان ما تصحو في أوّل ارتطام لهم بالكراسي.

فعَلَا صوتك، ليس من حلّ غير التّطعيم المبكّر والاشتغال على تنظيف جيوب الفقر والفساد والجهل.. ورفع أعلام الحبّ بدل كلّ الرّايات، فكلّها كذبة إن لم تنخرط في بعث الإنسان. أعلم يا روحي أنْ ليس للتطرّف من مستقبل؛ فأصحابه بلا عقول والبقاء للعقلاء كما تعلم.

وأردفت في ألم: أنا يا روْحي لا أعتبر أنّ ما بيننا والعالم المتقدّم حقبة زمنية تُقاس بعقود، بل أقول بيننا وبينهم «الحقبة الداعشيّة» تجاوزها الغربيون نسبيًّا بعد الكبت الكنسي القاهر، أشعل فيها

المسيحيّ أخاه، وبه أشعل أجواره في الشرق في حروب صليبيّة واستعماريّة لاحقًا، غير أنّ التّوق إلى التحرر ظلّ حافز هذه الشعوب نحو القيم المثلى فجرّفوا في ثوراتهم الاستبداد والفاشيّة، وهُم مؤمنون بأنّ أيّ كبتٍ لا يلد إلّا تطرّفًا، وأنّ أيّ قهر لا يُفرّخ إلّا إرهابًا وردودَ فعل مفعمة بالانتقام والدمار.

عملت هذه الشعوب بمُصلحيها ومُثقفيها على سحب فتائل الحرائق لبناء الأوطان وأساسها الإنسان، وهذا هو «التطعيم المبكّر» الذي حدّثتك عنه يا روْحي لم نصل إليه في أوطاننا العربيّة بعد، نحن في أوْج الداعشيّة وأعلى درجات الكبت وأرذل ارتدادات القهر، نجني ما زرع ساستنا وأشباه مثقّفينا، عائلات أصحاب السموّ والعصبيّة القبليّة ولوبيّات النهب الجملكيّة.

وشعوبُنا يا روْحي بوعيٍ ضامر وضمائر خامدة أنهكتها اللقمة وعصا السلطان وجزَرَتُه، أُشربت الفزع من المغامرة فأبتِ الانعتاق من العتمة، وعملت بمثل «مَن يتزوج أمّنا ناده عمّنا»

وإن كان زواجَ سفاح.

فكيف لا ننحدر يا روْحي إلى الداعشيّة بألوانها العلمانيّة اللائكيّة والمبرقعة بالدين والمذهبيّة، ونظريات «عصمت وعفلق» والكتب الخضراء والصفراء والحمراء؟

إنّنا في أوج «الداعشيّة»، ولا مناص من الدماء والأيدي الملوّثة حتى تُهيمن العقول التنويريّة المنبعثة من سماحة الأديان وسلميّة غاندي وبساطة بوذا وأثرة الأم تيريزا وعدل الفاروق وصوفية ابن عربي وعقلانية ابن رشد.

لم نصمتْ ليلتها إلّا حين غرّدت العصافير حول عشّنا.. كنّا في قمّة سعادتنا ووهَنٍ لنومٍ ما عرف طريقه إلينا. دأبنا على احتساب ما ضاع من عمرنا ونحن في منفييْن مُقدّرين تحوّلا بالتقادم إلى زنزانتين ملّتهما روحيْنا فرفرفتا نحو السماء وفي أعقاب العمر التقينا وأوّل القرارات التي اتخذنا «لا نوم حتى الموت»، وصارت ظلمة الليالي الشتويّة الباردة دفئًا وسهرًا ونبشًا في كلّ الزوايا، وحفرًا في المخبّأ، وكان معولك السؤال، وكم سعينا إلى جرْف الآلام التي نبتت فينا غير أنّا عجزنا فقد تشعّبت عروقها وتمددت حتى غدت أطول من أعمارنا، وأعمق من أحلامنا، مؤذية كشوكة وصرخة حبيسة ودمعة متحجرة وحب مستحيل محاصر.

وحين يُرهقك السؤال ولا تقنعك الإجابة؛ كنت تقول لي: ابتسمي ريحانتي؛ ففيك سحرٌ من الربيع جاء قبل أوانه، وحلمٌ انتظر وقتًا أفضل ليباغتنا لم نملّ يومًا انتظاره.

ابتسمي يا ريحانتي ولا تقلقي، لا أحد يُشبهك ليأخذ مكانك.

عذّبني حينها كلامك لأنّك تعلم جيّدًا أنّه قد ضاق بي المكان، وانقضّ على فرحي بك الزمان، فقُطعت من شجرة الحبّ، وأصبحت تهزّني رياح الفقد، وتُلقي بي في دروب حياة لا تُشبهني، كلّما تجاهلتها كشّرت عن أنياب وحشتها، فعجزت عن مقارعتها بالدموع، وحزن أسود استشرى في جسدي كورمٍ خبيث أحاول إخفاءه بعمل مُضنٍ ذهب بألقي يأتيني يا روْحي ليلي محمّلًا بأوجاع تفوق قدرتي على النّحيب، فأنهزم وأنزرع في الذكرى، أسبحُ في شموع الماضي، أبحث في أنوارها عن بقايا أمل أدفع به صحارى الوحدة والنسيان، وانتظار مَن لن يعود.

(13)

تصدير:

صلّوا من أجل الذين يسيئون إليكم.

الكتاب المقدس

الفجرُ

جاءني صوتُ المؤذّن ضعيفًا من أحد الجوامع البعيدة.

ومازلت صاحيًا لم أعرف رائحة غفوة، أنتظر أن أراهم يحملون نعشك على أكتاف لا تعرفينها ولا تعرفك.

سيبكي الأقارب الأبعدون قليلًا، ثمّ سيعودون للأحاديث وربّما التندّر والضحكات في تجاهل ساذجٍ لقدر الموت ومصيبة الفقد الموجعة وسيتلهّون بقصاع الكسكسي المشتهاة في هذه العاصفة الكافرة.

وستنفرد بي الوحشة.. أعلم أيّتها الباردة هناك أنّ الحزن لفقدك سيكون لي وحدي، سأحمله في قلبي، وأظلّ أوزّعه في شراييني قطرةً قطرة ما بقي لي في الحياة نبض، ولن أدع أحدًا يشاركني حزني عليك، لن أسقط في الخطأ ثانية حينما تركتك تتسرّبين من حياتنا في الماضي، ظننتها جُعلت لتشهد أروعَ قصّة حبّ حاكها الزّمان بأنامل «أراخنا» وسقتها آلهة الخصب كي تيْنع، وتكون الحكاية «النمط» غير أنّ أحابيل الهجر قد نُصبت وانقطع وصلُ ما بيننا لعقود ثلاث.

أعدُك يا ريحانتي أن أفجّر عينًا تدعي دمعًا لأجلك وقد سبق أن غضّت الطرف عن وجعك لمّا حاصرك كما ذكرت بكلّ تقنيات

الفشل والخذلان، فصيّر عمرك مطمور أحزان، ومحضنةً للألم حين ظنّ حدود الأنثى مضجعًا، وغرفة تُوصد سويْعة لفكّ الأزرار والعقد، لن أدعه يبكيك لو تيسّر لي فقد أبكاك كلّ العمر.

وإنْ أنسى لا أنسى تلك العشيّة المميّزة.. كنت محتمية بذراعي وقد كنّا نعدّ على الشمس الغاربة أنفاسَها عند سهل البحيرة الجبليّة والأطيار تحتفي بالربيع وخضرة الحقول ودفء الحياة من حولنا.. أذكر حين غمدت رأسَك في صدري وأغمضت عينيك وأنت تطلبين الصمت شرطًا لبداية القصّ.

قلت: انظرْ خيوط الشمس يا روْحي، وعدّها حتى تثبت حبّك لي. حضنتك وضحكت لطفولة ظلّت تُرافق عمرك كلّه، وعجبت كيف انتهك تلك البراءة فيك، وعبّأ كيانك ألمًا لم أستطع حتى اللحظة استئصالَ بعض عروقه وقد التبست بأنفاسك وكلّ جوارحك.

برّح بي الوجع والشعور بالعجز أمام مرضك المزمن به، قلت: لقد كان ويلًا وكساحًا متأخرًا ولوثة عصبيّة حرقت باطني، كان وعدًا سفيهًا وبرقًا خُلّبًا وبطولة مزيفة وحلمًا بنكهة الكابوس، أرقصته دموعي ودندنَ على وجعي ونسي أنّي ما كنت يومًا له، وكان عليه أن يبذل جهدًا مضاعفًا كي يحتويني ويطرد طيفك الرّابض داخلي، فمتّعك باستيطان فاق وعدَ بلفور وكلَّ معاهدات الحماية،

أحكم البنود وشروط النجاح وها أنت ومنذ عقود مزروعًا داخلي لم تتزحزح قيدَ أنملة يا روْحي، وظللت حبلى بكما، وكلاكُما مؤذٍ بطريقة ما، تأبيان مرحلة الوضع وتُحكمان وجعي دون طلق.

كيف أجهضه وأبقيك؟ وأقطع ما كان بيننا دون مشرط أو دماء؟

مسالمة أنا أبدًا، أكره الحروب والنقاشات الجوفاء.. لقد أعلنت له من البدء أنّي امرأة بها فائضٌ من العطف وبركان غضب، وأنّ عزّة نفسي نهرٌ أحمر تُمنع فيه السباحة في كلّ فصل، وأنّ صمتي بداية الصّقيع، وأنّ ثورتي انسحاب لا عود بعده، ولو دفعت عمري مهرًا، وأنّ قراراتي نافذة كالقدر، لقد أكّدت له ذات جدل بيننا «احذر تحجّري وقرارًا قد أتّخذه بالرّحيل ولو ضمّتنا حيطان وحوّطتنا أسوار، لن تستطيع محاصرتي فلي قدرة على تحويل عطرك مدخنةً، وهمسك صفيرَ ثعبان، لن يُحاصرني ظلّك فأنا الغياب ويمكنني السّير بدونك، فلست سقف المكان ولا عنوان الزمان.

ما درى يا روْحي أنّي أجيدُ المرابطة عند ثغور الكرامة، وأنّ هزائم الأمّة كلّها بدأت حين تنكّست الهامات وانكسرت الأعين تلعق الأتربة، وأنّ بداية السقوط تنازل، وأنّ امرأة مكسورة الأنف تلدُ صغارها بلا أنوف توريثًا، وأنا لن أزرع في هذا الخصب إلّا خيرًا احترامًا لروح أبي، فالح الأرض وعاشقها.

قلت لك تلك العشيّة العاشقة: أجهضته وانتهى، تعاليْ

نستردّ من الطبيعة بعض النور، انظري الشفق وشمسه الباهتة، تأمّلي النّهايات الساحرة وكيف تُقيم عرسًا من الألوان تعتلي ركح المكان دون أن يُرهقها التلاشي في الزمان، كلّ الألوان الحمراء والصفراء والسوداء تآلفت وتصاهرت وانصهرت، من الشمس الغاربة بعض أنوارها ومن الليل الساكن سترًا وتحفظًا، ومن البدايات والانبعاث حلمًا.

تعاليْ يا ريحانة روْحي نصير جزءًا من الفرح بهذا الغروب، فبعده يأتي الشروق، وإن لم يكنْ لنا فلغيرنا، أيُعقل أن تظلّ شمس الكون لنا وحدنا وللأبد؟

أنا فرح بالغروب معك كفرحي بأوّل همسة تسرّبت منّي وأنا أعلن شغفي بك ذات أمسية شتوية باردة، كنت حينها يافعة وترتجفين بردًا وتوجّسًا وحبًّا خجولًا بكرًا لم يمسسه بشر.

احتويت خوفَك، وفارق ما بيننا، وعمّنا صمتٌ غامض لم ندرِ مأتاه غير مشاعر آسرة كبّلت شفاهنا، فلم ننطق، وأسهم مِن حبّ كانت تخترق جسديْنا بالطول والعرض فلم نتماسك.

تعاليْ يا ريحانتي نفتك من صلفِ الزّمان أحلى الذكريات، فهي على نُدرتها قادرةٌ على بعث الدفء في هذين الجسديْن، أنهكهما الخريف ومطبّات الحياة.

مشيْنا على جنبات الوادي، وقد همّ به الليل فبدت أمواهه كالمرايا القديمة تعكس في غموضٍ ظلًّا بعيدًا للقمر.

والشمس قد غيّبها الأفق، فلم تثبت في السماء غير حُرقة فراقها هالة حمراء مضرّجة بسواد ظلّ مندفعًا في جبروت يغزو ألوانًا أيقنت الهزيمة فانبرت تُؤثث لجيوب مقاومة سرعان ما تستسلمُ أو تفرّ مخلّفة ومضاتٍ نورانيّة وخيوط برتقاليّة واهنة.

يصير حينَها وجه السّماء ساحةَ حرب بجيوشٍ من الألوان في مختلف الأشكال، لكن دون جلبة أو نيران، معركة السحر الصامت، حسبها أن تُذكّر بسنّة التداول وحتميّة الفناء ونهاية كلّ البدايات.

أيقظتني وكنت غارقًا في شرودي وتأمّلاتي واستحضاري لأولئك الذين أمضوا نور العيون وهُم يُحبّرون أحلامهم وانتظاراتهم، ويبدعون لنا سيرًا وعبرًا فتأكّد لي صدق من قال «إنّ الأدب مأساة أو لا يكون.. كما تأكّد لي أنّ أروع ما في الحياة قدرة الإنسان والأقدار على تصيير المأساة نافذة من نوافذ الأمل وانبثاق فجر آخر، حتّى وإن كانت العتمة تهمّ بالمكان، فلا بدّ أن نحتفي بالنّور.. وظللت تهتفين نشوى «انظر إلى الأشجار وأغصانها وقد أخذت في التحوّل إلى أخيلة راقصة تُحرّكها نسمات المساء.

ترى يا روْحي أنّ كلّ أزمنة الطبيعة احتفاءٌ تتآلف فيه العناصر

لتُشكّل لوحة غاية في الروعة، فحتى هيمنة الظلمة وغياب الضياء احتفاء، وهذي الطيور تعود إلى أعشاشها على وقع سنفونيّة الحبّ والفرح بتجدّد اللقاء وبليلة أخرى من الهوى.

كمْ جميل أنّ نظلّ هنا نُشارك الطبيعة أعراسها.

كنّا ساعتها قد قطعنا مسربًا مكلّلًا بالأزهار البريّة حاذى الوادي ووصلنا إلى البحيرة الجبليّة، وكان خرير مياه كلّ الأودية القريبة ينتهي عندها فيصمت ويشرع في اكتشاف عالمٍ أرحب باتّساع بحيرة بدت للرّائي بساط لجين ينصهر، حدّت أطرافها الأشجار وأجمات الأعشاب فحاكت دائريّتها وجه القمر.

في ذاك المساء السّاحر، دعوتك قمري للجلوس عند طرف البُحيرة وغمسنا أقدامنا في مياهٍ باردة صامتة أنعشتنا، ودعت حواسنا للتيقظ، قلت لي: حدثني يا روْحي تهمّني معرفة كلّ التفاصيل الشاردة في حياتك قبل هذا اللّقاء، واحتفظ إن شئت بالخصوصيات.

أدري أنّك تشتعلين حيرةً وغيرة، تُريدين النفاذ إلى أعمق أعماقي، فقلت لك مؤكّدًا: لا تُقلّبي وجعَ أيّام لم أكن طرفًا في نحتها.

سرْت فيها على أشواك طريق مسطور، لم تُفاجئني منعرجاته بعد أن دمي القلب مذْ فارقتني، فصار وقع النّصال خربشة لا تُؤذي، لم تُحرّكه المشاعر وظلّ صخرة تتآكل، أكنت تعلمين أنّك قد حرمتني من الأحاسيس فقد رحلتْ برحيلك وأخذت في طريقها الحروف الدّالة على

المستقبل والتوقّع والإمكان، واختزلت حياتي في روتين النفي والتعجيز.

لقد انغرست فيّ عجلة اليومي، وظلّت تُديرني رافعة خافضة حسبي الخطوات في طريق دُفعت إلى السّير فيه دفعًا، لم يُغرني اكتشاف النّهاية، ظلّت أحلامي متحجّرة ساكنة تنتمي إلى زمنٍ آخر توقّف يوم هجرْتني.

وانزحت بك إلى الجنّة أمامنا، كان السحر فيها قد تجلّى ماء وخضرة وشدوًا وأفقًا متوهّجًا يُودّع شمسًا خجولة، ويستقبل قمرًا ليلة اكتماله، ونسمات رقيقة تُغازل مياه البحيرة فترسم على وجهها نمنماتٍ متعرّجة، فتبدو سجّادة فارسيّة فائقة الجمال والانسجام.. لا شيء يدعو المياه للاندفاع أو التموّج، سكنت مطمئنّة إلى الأرض واحتمت بسفوح الرّوابي في تحدّ صارخ للجدب وسنوات العقم.

اندفعت إلى أحضاني وأنت تقولين: امتدّ حولنا الظلام والمكان على جماله موحِش، وقد خلا من البشر.

احتويتك أدفع توجّسك قائلًا: المكان هو المكان محايدٌ أبدًا، ونحن مَن يشحنه بالدلالات ونُلبسه الغريب والخرافات، ونسقط عليه من أنفسنا فيصير ما نريد، أغمضي عينيك وأطلقي روحك تُحلّق في سماء هذه البحيرة ودَعي جسدك يستوعب هذا الصمت فكم نحتاج هذا العلاج.

لا تنسيْ أنّ الارتجاجات قد مسّت أدقّ تفاصيلنا، وعصفت بعمرين ظنّا أن لا تلاقيا، لقد اخترقنا قوانين البيْن الصّارمة، وخاتلنا

النّهايات الرّتيبة لنجعلها مفتوحة على احتمال صادمٍ وخارق هزّ عيْشنا السّابق من الجذور، فكيف تُفسّرين ما حدث؟ أهو العبث؟ أهو القدر؟ أهي الصدفة ألقت بنا مجدّدًا في نفس الطريق دون تخطيط؟

أمْ هو الأمر تجاوز كلّ ما سلف ليتعلّق بروحيْن ظلّتا معلّقتين بين أرض الواقع وسماء كاملة من الشوق والحنين والحبّ المنتفض؟

جاءني ساعتها ردّك سريعًا وبسيطًا، قلت: أحبّك يا روْحي وكفى.

فعقّبت مؤكدًا أنّ الحبّ هو عدوّ الفلسفة، ويكره كثرة السؤال، وتُفزعه الشكوك وينحره الإهمال من الوريد إلى الوريد.

غير أنّك استأنفت هازئة «إن كان عبثًا فقد عاد للجادة، وإن كان قدرًا فنحن نؤمن به، وإن كانت الصدفة ألقت بنا فهي خيرٌ من مليون موعد، وأنا يُعجبني الاحتمال الأخير.

وأردفت «قمْ بنا يا روْحي فقد ضيّعت في هذه الأمسية طقس تيمّني من شرفة بيتنا بالشروق وأنا في عزّ الغروب أناجي الشمس، أحمّلها مسئولية النور في هذا الكون حتى لا يتغوّل الظلام وتنتشر الخفافيش.. تعلم أنّي أخافها ويُرعبني صفيرها الأسود.

عجبت لطلبك وقد جعلت المكان قيْدًا، فالتيمن يحصل في الذهن ويمكنك فعل ذلك أنّى ولّيت وجهك.

قلت لي منزعجة: إن كان قيدي المكان فأنت قد قيّدك الزمان،

فمنذ التقينا أسرتْك الثلاثون سنة من الفراق، وجعلتها عنوانًا للحيرة والألم حتى أضحت عقبة، تجاوزها وسأحبّك في اليوم ثلاثين عامًا.

أكّدت لك وأنا أفرط في ضمّك حبًّا وخوفًا أنّ الزمان والمكان كلاهما قيْد وهما المحددان لكيان الإنسان، هُما التاريخ والجغرافيا.

ألا تريْن أنّ كلّ الحروب الكونيّة وهذا الدمار من حولنا يعود إلى المكان يُراد الهيمنة عليه وإلى الزمان يُراد نسفه وغرس آخر بدلًا عنه في ذاكرة مختلفة.

فقلت لك متماهيًا: طالما ظلّت الشعوب يعنيها المكان فلا أحدٌ ينتزعه منها وستحتفظ بسلالمَ من الأزمنة دون كلل، وإن كانت هذه السلالم الزمنيّة قد أضحت في أوطاننا عبئًا فقد حُبّرت بالدماء والمآسي والهزائم والنكسات والنكبات.

فقلت لي حائرة: ألا ترى أنّ التاريخ قد حمّل طيّاته موجاتٍ سلبيّة مدمّرة لنفوس الأجيال، ركامٌ من الهزائم تدعو للتنصّل من الجاهليّة الجهلاء ووأد البنات أحياء.. وأخرى يستنبتونها في رحمِ شرقٍ جديد يقطّع الرؤوس ويحرق الأحياء، مكائد وطوائف ولعبة الأقوياء في السيطرة على الأغبياء.

ضممْتك وأنا أردّد: التاريخ يا ريحانة عبء، والمكان أمانة، وشعوبنا المنكوبة بساستها واقعة تحت وطأة التاريخ وعاجزة عن تأمين الجغرافيا.

(14)

تصدير:

المثقف يستميتُ في الدفاع عن الحريّة بما هي مُطهّر للعمل السياسي من كلّ أدرانه.

بحري العرفاوي

الصّبحُ

انبلج بعضُ ضوء مخاتل فتوجّهت إلى الشرفة رغم البُروق الخاطفة والرّعود المدوّية، ولي رغبة أن تقصفني صاعقة، أو تُسكت أنفاسي موجة صقيع فأهنأ بموتي إلى جوارك، ولكنْ ما كلّ الأمنيات تُدرك.

تسمّرت هناك.

عجزت الرّياح العاصفة أن تردّني إلى الدّاخل، كان جنون الطبيعة قد بلغ مداه لا شيء ثابت، وكأنّما المشهد قد اختزل مشاعر النقمة والحقد والسخط والترهيب والكيد والوعيد جميعها، إزاء هذا الهول يصير الإنسان قشّة تنفضها الرياح وريشة يُلقي بها الأفق إلى الأفق، وظللت ثابتًا كالمسمار أستولدُ خبايا الذّاكرة، أوقدها شموعًا تنير عتمة شاملة تألّبت على المكان وانفلت من سطوتها الزمان ليجمعنا بعد هجر «الثلاثين..»

أصبحت لقاءاتنا حُبلى بالهواجس، وعشنا بكلّ ما بقي لنا من جوارح القلاقل التي تعصف بالأوطان، أذكر لمّا قلت لي يومًا «أفّ يا روْحي.. يؤلمني الوضع، لقد استطاع الفساد أن يُروّض الثورة، بل ماذا بقي منها ثورتكم هذه؟

فسارعت أردّ على تشخيصك الموغل في التشاؤم، قلت: يمكنني أن أعكس الطرح وأسأل: ماذا بقي من الاستبداد فليس هيّنًا يا ريحانة أن يسترجع الإنسان كرامته؟

فاندفعت متحمّسة تقولين: لو قارنّا بالذي وقع في الثورات عبر التاريخ من محاسبة ونصب للمشانق وقطع لرؤوس الاستبداد وجذوره.

غير أنّي قاطعتك مُوضّحًا: إنّه لا معنى لثورة نمطيّة على غرار الثورة الفرنسيّة أو البلشفيّة في ظلّ العولمة، ثمّ أكّدت لك أنّ أهمّ الإنجازات الحاصلة بعد الثورة هو منع الدولة من الانهيار، أو أنّنا كنّا عشنا صورةً من صور حريق الربيع فقد شُكّل كما تريْن حسبَ الطلب فمِن حرب أهليّة وأخرى داعشيّة وثالثة طائفيّة ورابعة عربيّة عربيّة تدكّ أرض سبأ وأشنعها عسكر يطحنون الأجساد في الميادين وعدوّ فاغر فاه يتربّص.

لقد أبدعوا في التنكيل بهذه الثورات، وحلّ عزم الشعوب المتعطّشة للانعتاق.

قلت لي والتشاؤم قد أودى ببريق عينيك الجميلتين رغم حفر الزمن وأخاديد الدّموع: أرى ذلك بوضوح، فأنا لا أقصد الإحباط، فحتّى ما أطلقوا عليه انتقالًا ديمقراطيًّا في وطننا ليس سوى كذبة

كبرى وعدم فهمٍ للحظة، فالذي وقع هو تسوية بين نظام لم يسقط ومعارضة فشلت في إسقاط النظام القائم فعجزنا عن إنجاز الانتقال الديمقراطي ولم ننجز حتى اللحظة فعلًا ثوريًّا، لقد ظللنا كمَن شارف على العين وعاد أدراجه يشُلّ لسانه العطش، فما الذي جرى؟ كلّ الأسئلة بقيت على قارعة حيرتنا.

فقلت لك: لقد كنّا يا أغلى الأحباب في حاجةٍ إلى روافد تسند هذه الثورة وأهمها الإعلام والثقافة لخلق رأي عام واع وقادرٍ على مواصلة النسق الثوري وتأجيجه، غير أنّ صانع الأفكار غابَ وأفلح بعض الإعلاميين في صُنع وضْعٍ مناسب للانقلاب على الثورة مستغلّين في ذلك معركةً ذات عمق إيديولوجي مصلحي ضيّق، وإذا هذه الثورة قد وقعت بين مخالب «طغاة بغاة وغزاة غلاة» فلم نعد فعلًا متحكّمين في المسار، وصارت رياح الثورة المضادّة تشقّ للحريق الطريق.

وحتى لا يستبدّ بنا الوجع أكثر ضممتُك إلى صدري وأنا أقول: ألا تريْن أنّ حكاية حبّنا تُشبه إلى حدّ كبير ثوراتنا؛ انطلقت قويّة واعدة وإذا هي حرائق ورماد وأشلاء، العبرة بالحاصل يا ريْحانتي. وخنقتني عبرة سدّت عليّ أنفاسي.

أمسكت يومها بيدي وأنت تقولين: قمْ بنا إلى البحر يا

روْحي، اشتقت ضرب الموج للموج فنحن جميعنا نحتاج حفلة جلدٍ وحصصًا للبكاء قد تُطلق آلامًا حبيسة، وعنان وجع ركد في ظلمات بواطننا فصار أوْرامَ حزن وجبَ استئصاله، لن نقدر على العيش بسلام وفينا هول من المشاعر الجريحة وقصائد عتاب لم تُحبّر، قلْها وريّحني إنّني كنت الثورة المضادّة التي عصفت بقصّتنا، أعلم أنّ الرّجل لا ينسى امرأة أحبّها بصدق، يُخبّئها داخل جرحه وكلّما افتقدها عاد ينبشه بمشرط الذّكرى ويُضمّده بسيل البكاء.

كانت الشمس في ذلك الصّباح الباكر تُعالج آخرَ غفواتها خلف الأفق، فشرعت خيوطها الّذهبيّة تنسج على وجْه البحر لوحاتٍ من الزّجاج المعشّق، كتل من النور والضياء على بسط الماء، اجتمعت يومها فتنة الأرض إلى روْعة السماء فلم نعد نرى فاصلًا بين الوجهين، ذهب في لُجين وما بينهما السّحر يُعشي وبصائر لا تُبصر.

والنوارس خفّاقة أجنحتها تبدو عن بُعد مثل مخطوط قديم لرسالة عشق مجنونة خطّها تائهٌ على رمال الصحراء، لا تُقرأ ولا تُفهم، لكنّها تشي بآهات مُغرقة في الحزن والضياع، وبصيص أملٍ يدفع به حبّ بُعث من رُكام السنين وأتربة الأطلال.

مشينا على الشاطئ، ومياه دافئة تُلاطف قدميْنا، وتهمس للرّمال الذّهبيّة «إنّي جئتك أحمل سرّ الأعماق ودفء الشموس

وغواية السّفر.

قلت لي حزينة: ما شعرت بالهدوء يوْمًا يا روْحي، فحياتي أمواج عاتية ومطبات هموم غير قابلة للاختراق، أغبطك يا روْحي، قدرت على استيعاب أوْضاع لم تكن طرفًا في اختيارها، وبنيت أسرة رغم نزيفِك الدّاخليّ، بينما وجدتني مُنقادة إلى تحبير حقيقة مشاعري دون مُواربة، وشى بي القلمُ، وأخبر أنّ الماضي ظلّ جاثمًا في خشوع على قلبي، قيّدته الذّكرى بسلاسل الحنين والأشواق، وسيّجته حيطان من الألم والحرمان ومابرح النبضُ يخفق لك أنت، وما من أحدٍ سواك بعد أن طوت ما بيننا هضاب الهجر ووديان البيْن.

أجبتك وحسرةٌ تنتهك قسمات وجهي: صدّقيني، لقد كنت حاضرة في كلّ اللّحظات الفارقة في حياتي، شغلت الفؤاد وعمرت الذّهن، أراك في لهْو الولدين كانا ليكونا ابنينا، أذكرك عند ورود الحديقة وأستنشقك ممزوجة بروائح الياسمين في الليالي الصيفيّة المقمرة، وتأتين إليّ مع زوابع جانفي وأمسيات الشتاء القاسية، فتهزّني أغاني الغياب والفقد وتنغرس الأشواك في حلقي، ظلّت تقف مسمارًا بيني وبين أيّ امرأة سواك أطارحها عبارة «أحبّك» انحبست أنفاسي عندك وانتهى أمري.

غير أنّ صروفَ الحياة وبرمجة الدّهر تفرضُ على المرء التّعايش

مع المصير فيحمل في سرّه تفاصيل خيبته ويمشي، أدري أنّ جرأتك في الوفاء لي يا ريحانة قد صيّرت حياتك جحيمًا ظاهرًا للعيان، بينما ظلّت نيران حبّك تتّقد في باطني، وكلانا عاش المحرقة.

ثمّ دفعتني يا روْحي على حين غرّة إلى البحر، وأنت تصرخ نشوان «وها يا حبيبتي الأبديّة قد حان زمن الإطفاء.

غيّبتنا المياه، الرّوح في الرّوح، والقلب في القلب، والشمس فوقنا إنْ طفونا أرسلت علينا أشعّتها فنخاف عودة الحريق الذي ألهبنا «ثلاثين سنة» فتعيد المياه سحبنا تُلطّف النّدوب.

كنت تمسكني وتقول لي: ألا تخافين الغرق؟

فأقول: وتلك أفضل النهايات.. الغرق في حبّك. وأقهقه باتّساع الموج والبحر وزرقة السّماء، كنت في منتهى الفرح وذروة العشق، ألامس حلمًا مستحيلًا جاءني على رجليه، فلْأغدق لك روحي في إفراط كأسًا.

ثمّ سحبتني إلى الشاطئ، استلقيت على الرّمال، ورحت تتأمّل السّماء البعيدة، وأنت تقول: تصوّري كونًا لا بحر فيه.

فقلت لي ساخرة: لكانت جدّتي شوريّة قد انتقلت من هناك إلى هنا حيث اليابسة دون ويلات.

وإذا بك تنتصبُ كطفل وجد ضالّته «بالله عليك أكملي القصّة

ودعيني أغفو على الماضي بينما الموج يهدهدني.

فأجبتك «أوه يا روْحي لا تفتأ تقلّب جمراته ذاك الماضي اللّعين، بعد أنّ ريّح الموت الجدّة ظلّت أوجاعها فيّ أذكر أنّها قالت: «وصلنا والشمس عالقة في كبد السّماء، غير أنّ شعاعها المعتدل قد لامس أجسادنا في حنوّ فانبعثنا نطلب الحياة بعد فزع وخوف وتوجّس وموت خاتل أغلبنا.

وأردفت: كان مرافقنا التركيّ ملتزمًا بالاعتناء بنا، تتنهّد «يا لسخاء معاريف، لقد علمنا بعد مرور زمن أنّها دفعت كلّ ما اكتنزت من الدنانير الفضيّة العشريّة التي راجت في العصر الغرناطي حتى تؤمّن سفرتنا، وبيتًا طيبًا يستقبلنا.. وكانت تذكر المثل الموريسكي «إذا أفلس اليهودي يفتّش دفاتر ولدو» ومعاريف ليس لها من هذا الحرص أبدًا.

وتكمل «حطّت بنا السفينة الرّحال كما غيرها من السفن التي ظلّت تشقّ البحر من الضفّة إلى الضفّة، والبحارة الأتراك والمغاربة يجتهدون لإنقاذ الأعداد الضخمة من الأندلسيين ممّا كانوا يقاسونه من اضطهاد القشتاليين..»

لقد كان مرأى المنهزمين التائهين الغرباء عن الزمان والمكان مخزيًا... فكانت كثيرًا ما تردّد معلّقة:

«المتنقلة مذبالة»

ونحن يا ابنتي اجتثثنا بلا رحمة، وهربنا متخفّين بالظلام، فأيّ شرف للإنسان حين يغدو بلا كيان؟

كان لنا أرض، وفي بلاد الأندلس صولات في العلوم والفلسفة والفن والعمارة، كان لنا ملك لم نحافظ عليه فبكيناه كالثكالى، جار ولاةُ أمرنا وتكالبوا على السلطة، دسّوا الدّسائس وكثيرهم قد خانَ وباعَ أحيانًا من أجل نزوة، تناحر الكلّ مع الكلّ؛ عرب وعرب وبربر وصقالبة، كما حدثنا الكبار وكتب تاريخنا الأسود والحرقة تغمر نفوسهم، وكانت هزائم الأتراك تلقي بذيولها على الدّاخل وعجزت بلاد المغرب على الدّعم لما استشرى داخلها من حروب أهليّة ومجاعات وجوائح أتت على الأخضر واليابس، إنّ السقوط حين يحلّ يجلب معه شروطه اكتماله.

لا تنسي أنّ الزّمن كان يهيئ الغرب للفتوحات الكبرى والعوالم الجديدة والثورات العلميّة بينما كنّا نكتفي بفتوحات صغرى حمقاء مدمّرة، طوائف وخونة صغار يبيعون، وخونة أكبر يشترون إلى حلول مزادٍ آخر، لقد استنسخ لنا التاريخ المئاتِ من الوزير بن كماشة الذي فاوض باسم الأمة وأعدّ معاهدتيْ تسليم غرناطة السريّة، وفيها البيع والشراء والعلنيّة المراعية على خجل نتفًا من الكرامة، تتوجّع وهي تقول «ثلاثون ألف جنيه قشتالي، وحقّ أبي

عبد الله محمّد الصغير في صون قصوره وضياعه وممتلكات أهل بيته كانت تلك تسعيرة غرناطة وبضع قشتاليات فاتنات تركن أبي عبد الله الصغير صغيرًا يحبو نحو هضبة زفرته الأخيرة كتيسٍ شبق مكسور الظهر والقوائم، ضعنا يا صغيرتي في المزادات».

وتواصل حزينة: جررنا أذيالَ هزائم الأجيال ونحن نطأ الأرض.. سمعنا أنّهم هيؤوا لنا أرْبُضا هي مخيّمات لجوء، تريْن قد فلحنا في بكاء البلدان ونصب المخيّمات.

وكنت تعلّقين على كلام الجدّة «آه يا روحي، خيمات عصورنا الجاهليّة لم تُبد عبر الزمن، ألا ترى أنّا ظللنا أبناء الخيام تعبث بأحلامنا الرّياح والسيول؟

وتعودين لحكايا الجدّة حيث نقلتِ عنها «يوم الوصول حمل مرافقنا التركيّ ما بقي من أغراضنا ومشينا خلفه، كنّا لا نكاد نفهم من إشاراته إلّا مواصلة السير قدمًا حتى وصلنا إلى بيت كالقصر في الفخامة، تمتدّ حوله السّاحات وارف الظلال تغطّي أركانه خضرة وفي زواياه النّوافير حولها الحدائق الغنّاء والطير صادح والنّواعير تنعر.

الحاصلُ يا ابنتي هي ترتيبات معاريف خفّف الله ثراها، فقد دفعت حتى تضمن لنا الكرامة.

قاطعتها حينها أسأل: أليست معاريف يهوديّة؟ لماذا انقلبوا علينا!؟

أجابتني «بين اليهوديّة ديانة سماويّة والصهيونيّة حركة استيطانيّة عمياء؛ فروق كبرى.

استدرجتها يومَها في حديث عن الأديان، جدّتي يا روْحي عالية الثقافة والعلم، قلت لها: أيّهما أفضل المسيحيّة أم اليهوديّة؟

فقالت: رحم الله ابنَ حزم الأندلسي فقد وقع بين يدي كتابه الردّ على ابن النغريلة اليهودي وقد علمت أنّ المسيحيّة إنّما هي في المنشأ فكر نحلة يهوديّة، وأنّ أتباع عيسى هم من يهود فلسطين ويهود الشتات، لقد نشأت المسيحيّة من انشقاق حدث في اليهوديّة في السنوات السبعين، ولمّا لُفظت هذه النّحلة من اليهوديّة الرسميّة جال المؤمنون بها حول حوض البحر المتوسّط متنكرين إلى أصلهم وقد حقّقوا نجاحًا تاريخيًّا دعمه السلطان السياسي للإمبراطور قسطنطين فأصبحت في نهاية المطاف عقيدة مستقلّة.

وختمت: المقارنات بين الأديان بحر. ما يهمّ يا صغيرتي كيف نقرأ الأديان؟ وكيف ننزّلها في الواقع؟

وعادت تُكمل فصول الرّحلة: لقد استقبلونا في ذاك البيت استقبالًا يليق بأميرتين صغيرتين، تبيّن لنا فيما بعد أنّ البيت الكبير كان لجدّهم «سالم التومي» قائد بني مزغنّة الشيخ الذي حكم

الجزائر، وكم أطنبوا في وصْف حروبه ضدّ الأسبان الذين انتهجوا سياسة متابعة حركة الاسترداد ببلاد المغرب، فتعقّبوا المهاجرين الأندلسيّين للحيلولة دون قيامهم بالجهاد البحري وأنّهم قد استولوا على عددٍ من المراكز الساحليّة كالجزائر، وكانت تسمّى حينها جزائر بني مزغنّة ويحكمها جدّهم «سالم التومي» فاستنجد هذا الأخير بالأخويْن خير الدّين بربروسة وعرّوج لطرد الأسبان لكنّهما استوليا على الجزائر، وضيّقا الخناق على سالم التومي، ألا ترين كم هو متقلّب تاريخنا ومُشين في كثير من فصوله.

في ذاك البيت المرفّه عشْنا، وتزوّجت روديسة «نوميد الأمازيغي « أحد فرسان قبيلة بني مزغنّة البربريّة، وهو أحد أحفاد قائدهم سالم التومي.

وتصمت وهي العجوز خجلًا، فلا نتركها بسلام.. وأنت وقصّة حبّك مع القائد التركي؟

تقول وبسمةٌ عريضة تملأ وجهها «يا ابنتي، حظّي ينطبق في التعثّر وفوات الأوان على مثلنا الموريسكي «رقد مرس وابريل وجا وقت حصاد الشعير» لا تُذكراني فحكايتي مع خيران رستم من شقّين حلو ومرّ، أجل يا صغاري لقد التقينا في إحدى المناسبات وانبعث بيننا حبّ كبير، عشنا أروع الأحاسيس، ومغامرات عشق

صغيرة كُلّلت بزواج لم يدمِ استقراره، إذ سرعان ما دُعي خيران إلى إخماد ثورات قبليّة استهدفت أحدَ بايات تونس الموالي للأتراك حينها، سافر في مهمته على أمل العودة، ولكنّ الأيّام والشهور مرّت دون خبر.. فقرّرت اللّحاق به دون مبالاة بخطورة الرّحلات البريّة آنذاك، أحيانًا يجرّ الحبّ المبتلين إلى المهاوي.

تحيّنت مرورَ قافلة مؤلّفة من الموريسكيين جاؤوا من مصبّ أبي الرّقراق وطنجا وسلا...

وكانوا يقصدون الاستيطان في تونس بعد أن ضاقت بهم الحياة وكثر بينهم والمغاربة الشقاق وألاعيب السياسة بعد أن أُقحموا فيها، فقد أصبحوا بيدِ الأتراك قادة جيش ومترجمين، وأحيانًا جواسيس.

كانت رحلتنا شاقة، قطعنا الفيافي والأدغال وأماكن موحشة، ولكنّ كلّه هانَ أمام هجمة وحشيّة لعصابةٍ من الأعراب كانوا يستهدفون القوافل المارّة، وقد اشتدّ سعارهم لمّا اكتشفوا أنّنا من الموريسكيين، وأعملوا فينا الضربَ والسلب وصل حدّ بقر بطون البعض ممّا يظنّون ابتلاع الجوهر، وكانت النسوة قد أخفين أساورهنّ في الحلويات التي اشتهرت فيما بعد ب»كعك الورقة « ولم ينتهِ الاعتداء علينا إلّا بأسْر البعض وسبي نسوة، وكنت من بينهنّ يا ابنتي، حملونا إلى جبال وسلات قصد بيْعنا أو استرقاقنا،

وكاد الرّعب يفتّ أكبادنا.. وتصمت وهي تسترجع تلك الأيّام السوداء وتقول: «أصبح الموريسكيّ لعنة أينما حلّ لفظتنا الأرض ولم تقبل بنا السّماء كنّا في الأندلس كما كرّر دائمًا كبارُنا يشار إلينا بأنّنا كفرة مرتدّون، ونعتونا بأنّنا نبطن الإسلام ونظهر التنصّر، ونعتنا أهل المغرب بنصارى قشتالة، وصرنا نهبًا للأعراب على اعتبار امتلاكنا للجواهر والذّهب المهرّب من الأندلس، تتوجّع «ضاقت بنا الأرض بما رحبت.

فكنت أخفّف عنها بالقول: «ولكنّ فارسك القائد التركي زوجك خيران ما إنْ علم بالخبر حتى جهّز جيشًا، وأغار على الأعراب المحتمين بالجبال واستردّك عروسًا، وعشت معه أحلى أيّام عمرك قبل أن يتعرّض لاغتيالٍ غادر عندما تناحر القواد على مراكز النفوذ والسلطة، بين آغات النوباجية وآغات الحصار والقواد والمقدّمين.

فتردّ غير عابئة: «يا ابنتي، إذا سمعت الأمير يغنّي اعلمي أنّ همومي تبكّي» كما يقول المثل الموريسكي، راح العمر والبركة في جدّك الفلاح الموريسكي الشهم هاشم بن مرياح السرّاج الذي تزوّجته بعد ذلك وأنجبت منه أسرتنا الصغيرة، لقد أبعدني عن بيوت الحكم والدسائس وعن السياسة لنعيش في هذه المزرعة التي

صارت لنا بالأرض جنة.

ظللتُ أحكي وأحكي ظنًّا منّي أنّك يا روْحي كنت تسمعني لأكتشف أنْ لا حياة لمن أنادي، وأنّك في سبات كأنّه الأبد، أنعشتك نسمات الأصيل ورذاذ الموج من حولنا.

قلت لك عشيّتها وأنا أوقظك: تركتني مع هدير الموج وحدي، كيف تنام في هذا السحر؟

آهٍ يا ريحانتي، وأنا هنا والآن وحدي تجاه أسوأ النّهايات.. رحلت وتركتني مكسورًا حزينًا في قريةٍ غارقة في المياه والطمي تجلدها عواصف متوحّشة من كلّ صوب.

ما كنت أدري أنّ غيابك مُصيبة أعجز عن تداركها بالصبر. هول ألقى بكلاكله على كتفيْ فأعاقني عن الحركة والتنفّس الطبيعيين، اجتاحني الدّوار وانقلب كياني.. أصدقك القول الآن وقد غيّبك الفناء أنّي توجّست كثيرًا من لقائنا في هذا العمر، وتكالبت أسئلة محيّرة على رأسي «كيف نتعوّد على بعضنا البعض؟ هل نتماهى في عاداتنا في الأكل والنوم والتواصل؟

فليس هيّنًا إرث العقود.

كنت أعلم عشقَك للوحدة والتأمّل والتدوين، وأنّك تعيشين حالاتِ الخلق مثل الوضع أو أشدّ ألمًا، وتعلمين أنّي أحبّذ الصمت

والاستمتاع بدفء البيت.. هل نلتقي؟ وكيف لأحمال العمر أن تحطّ رحالها حولنا بهدوء؟

أذكر أنّي قلت لك ذاتَ أمسية رائقة، وكنت مندسّة كطفلٍ تحت شجيرة الياسمين تُدندنين أغنية:

يا لّلي بعدك ضيّع فكري === ارجع لي القلب يضمّك === جنّني حبّك يا عمري»

ثمّ تُعلّقين سعيدةً كم أنت رائعٌ يا خميّس الترنان، يا ابن الأندلس. لقد كنت يا روْحي أتعمّد المرورَ من أمام بيته في بنزرت علّ نسائم الوادي الكبير تهزّني أو عطور جنان قرطبة تُحييني.

وما إنْ صمتت ريحانة حتى رفعتُ الصوتَ شاديًا:

يا زهرة غضّت وضاع أريجها — فقطفتها قرب المياه صباحا

ماللنّسيم يئنّ حزنًا بعدما — ألقى عليك من الحنان جنانا

يهواك لكنْ ساءه يا زهرة — أن لا يقبّل ثغرك الفوّاحا

لّما درى أنّ الفراق بلا لقا — جعل الهبوب على الفراق نياحا

ذكّرتني تلك الأيام التي عنّي نأت — ومضت وأبقت مدمعي سفّاحا

رافقتني حينها بالتصفيق، وبفرح طفوليّ وأنت تقولين: يا الله يا روْحي.. وكأنّ خميّس الترنان يحكي قصّتنا، كم هو رائع في لحْنه وكلماته نفح طيب الأندلس.

وانْفرجت أساريرُ وجهك المتعب، وضحكت عيناك السّاحرتان رغم وطأة الزّمن «حياتي معك بعثٌ آخر، وعمرٌ جديد، وراحة أبديّة لولا المقارنات العاصفة لعشت سعادة مطلقة ولكنّ أكدار الماضي رهيبة تشكّلت في صورة كوابيس مقضّة، فأجدني أسترجع- بمرارة- تلك اللّيالي الموحشة، ومقاطعات غامضة ومشبوهة ما إنْ تنتهي حتى تتوالد أخرى.

تُفزعني تلك الغرفُ المغلقة على جثثها الصامتة دون تحنيط، الرّافضة لفرحة الوجود وبشر الحياة الدّائسة على ورودِ الحبّ العطشى ورياحين الشوق أذبلها النسيان.

ثقْ يا ضياء العين وظلمتها حين فقدك أنّ مجرّد الذكرى تُفزعني، فكيف وقد عشت الواقع مع مُغيث البارودي أعوامًا بين فصلٍ وانفصال، وسفرٍ وهجر، وضيقٍ ومَضيق، وشدّة لم يشقّ غبارها طريق.

أعوامٌ من العبوس واليأس ينخر النّفوس، وتيهٌ غير مبرّر وشرر.. ما كان بيتي سكنًا يا روْحي.

كفّ عنّي الماضي، فقد استوطنتني أحزانه، وأراقت دموعي في مفترقات عمر ظلّ مرتحلًا بين وجعٍ ووجَع.

فقلت لك: عليك باستثناء أيّامنا قبل الضياع والرّسائل القاتلة

فقد كانت تشي بعناوين واعدة لرواية عشقٍ لم يكتب عنها إلى الآن.

فأردفت: ضاعت يا روْحي كإبرةٍ في كوْمة قشّ من المتاعب الشائكة وجفّ حبري واستشرى الجفاف في كلّ ما حوْلي، دعني أفني بقيّتي في الصمت والتوحّد بالمطلق. تعلم يا روْحي أنّ الدمار الذي حلّ بحياتي طالَ روحي وسكينتي، وجلسات من التأمّل كانت لترقى بي من عالمٍ سفليّ ظاهر التّفاهة والبؤس إلى آخر علويّ محلّق في الماوراء المطلق قادرٍ على انتشالي من الخنادق الموحلة.

قلت مساندًا: خذي زمني كلّه، وصبري جميعَه على خشوعك، فإنّك إنّي وعليه تتغذّى روحي، فنحن المفرد المتّحد كنت لأكون حضنك الدافئ ومظلّة من الحنان تُغطّي خطواتك نحو الإبداع والسموّ، فالحياة عزيزتي سلّم، والارتقاء ضرورة وجوديّة حتّى لا يتردّى الإنسان في وهْدة العدم، غير أنّ رياحك العاتية وجنون السياسة قد مزّق أشرعتي فأبحرت يتيمة في العواصف.

فهل يقدر لقاءُ الخريف على رأب الجراح وبناءِ حياةٍ أخرى، وإن قصرت بأبعادها الحقيقيّة كي نشعر أنّ أحدنا محتوى في الثاني؟!

اصمتي ريحانتي، أو ثوري، فكيف تتنكر الأرض أو السماء للعواصف وسكينة اللحد؟

استدرت نحوي، وقد كنت تراقبين أدفاق مياه مفاجئة أخذت

تجلد التربة في حزم، وتنغرس في أعماقها بلا إذن بعد أن شرّعت لها الشموس الكاوية أبواب الظّمأ، ولم تترك للرّواء من أملٍ، وقلت لي: إنّ الخريف هو سيّد الفصول وأروعها، ولولا بشائر خصبة لما عمّت خضرة الشتاء، أو أينعت زهرة الربيع، ولا حلّ موسم الحصاد، وإن تبعثرت الأوراق واصفرّ العشب، واكفهرّ وجهُ السّماء، يظلّ يا عمري الخريف سيّد الفصول، هو مبتدؤها ومنتهاها، وعلينا أن نُقلعَ على اعتبار خريف العمر رمزًا لعتبات النّهاية وانكماش العمل والعطاء والعواطف، إنّه الوعدُ الحقيقي بالحبّ والخصب والنّضج والآتي، إنّه عنوان الحياة ولبّها النّابض، ومَن لم يحتفِ يا روْحي بالعمر وخريفه؛ ضاعت كلّ فصول حياته.

قلت لك: أقنعتني ومعك سأحتفي بالخريف حتّى أعوّضك فيه عن خيانات بقية الفصول.

فأنا أرضُك وسماؤك، ومساحة ما بينهما من العشق المجنون أهديه لك حزمًا وباقات ولهفةً وشوقًا لا يفنى، فهل العمر معك سوى ليلةٍ غاب فجرها، وفجرٍ انحدرت شمسه نحو المغيب.. ومضيت ريحانتي، وأقبلت وأنا مسمّر في حبّك لم تنقشع ليلتي ولم يبزغ فجري.

(15)

تصدير:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

أبو الطيب المتنبي

الضّحى

وهذه ليلتي بلا فرج...

تآمرت عليّ الظلمةُ والفقد والعجزُ والطبيعة الهوجاء وبيت مثلّج.. حتى عيناك اللتان كنت أستمدّ منهما بقيّة أنفاسي سافرتا في الغياب وأغوتْهما المغامرة.

أكلتْ وحدتي الأحزان.. لم يبقَ لي في هذا الكون سواك بعد أن سافر الولدان يرومان- زاعميْن- خلق عالمٍ آخر يليقُ بشباب هذه الأمّة الذي وُرّث الفقر والجهل وصنوف الإذلال. مازلت أذكر آخرَ نقاش بيزنطيّ دار بيننا قبل أن أفاجأ بهما خارج الوطن، قال لي أكبرهما وكان شابًّا خلوقًا حييًّا كثيرَ الصمت، تنفلت من قسمات وجهه أماراتُ ضيق وهمّ دفينين «هذا العالم الطاغي مِن حولنا لا يعترف سوى بالقوّة وتُرعبه المواجهة، لا ننسى أنّنا كنّا أسيادَ العالم لّما احتكمنا إلى الجيوش الجرّارة تشقّ عبابَ القارات، ونأتمر بأوامر الخلفاء، لا بدّ من معادلة جديدة تُعيد للرّعب توازنه، وإلينا حقوقنا.

تأكّدت يومها أنّ «دغمائيّةً» ما.. قد عشّشت في ذهنيهما، وقُضي الأمر، غير أنّي قلت يائسًا «تذكر القوّة، أتدري أسباب تملّكها يا دوسان؟

فردّ عليّ بجفوةٍ غير مبرّرة: إنْ تعمّق إيماننا وطبّقنا شريعتنا كنّا أقوياء.

قلت: وماذا عن العمل وخلق الثروة؟ ماذا عن امتلاك أسباب التقدّم وفرض الذات؟ ماذا عن القيم الكونيّة المشتركة وعن علاقاتنا بالآخر؟

وفجأة نطق يزيد متشنّجًا: دعْك من القيم الكونيّة والغرب الكافر؛ فلا حاجة لنا بربط علاقات معه، فالصليبيون يتحمّلون دمارنا ولسنا نحتاجهم.

فقلت له: إنْ تقوقعنا حكمْنا على أنفسنا بالعزلة في هذا العالم القرية.

وكان دوسان يومَها يجلس قبالتي يمشّط لحيةً عانقت الأرض، وكأنّه امتلك الحقيقة المطلقة فعملت على استفزازه بقولي: ليست القوّة يا بني أن تطيل ذقنًا وتلبس فضفاضًا وتحمل سلاحًا لا تعلم أين صُنع أو كيف.. وتقصد فلاةً لاعتراض مَن ليس على شاكلتك باسم فهم فاسدٍ للدين، وتوظيفٍ منحرف لمقاصده السّمحاء، قولا لي ماذا جنى صديقكم ماجد الذي سافر لبؤر التّوتر غير موتةٍ شنيعة ودمارِ أبويه اللذيْن انتظرا تخرّجه بفارغ الصبر!!؟.

ماذا لو فكّر الشباب مثلكم في بناء العقول ونشر الوعي بقدسيّة العمل وبضرورة الاجتهاد لتحقيق الاكتفاء الذاتي حتى لا تظلّ هذه الشعوب مرتهنةً في خبزها ولبنها ودوائها وأجهزة التّنفس ونبض القلوب لمرضى ينتظرون الرّحمة بدل تبني هذه المواقف المتعصّبة

والمدمّرة للأوطان!!

فردّ علي دوسان وقد ركب رأسَه قائلًا: «لن يتركونا ننهض بأمّتنا بالوسائل السلميّة- انظر كيف يدعمون أنظمةً مستبدّة، مبدّدة لمقدّرات الأمّة وكرامتها، بالحديد والنّار، والغرب محتكر، ورأسمالي يواصل رفعَ الحظر على كلّ محاولات التحرّر والتطوّر خاصّة إذا تعلّق الأمر بالمسلمين.

فأجبته «ما ذهبت إليه واقعٌ وعينُ الصّواب، ولكن متى غابت المؤامرات والدّسائس ومخططات الاستنزاف، فمنذ فجر البشريّة والأمم تكيد لبعضِها البعض يُسيّرها في ذلك حبّ الهيمنة والتملّك وفرض العقائد على اختلافها، فما وصلنا إليه من انحطاط قد سبق الاستعمار، واستمرّ مع «دولة الاستقلال»، وهو بذلك نتاج داخليّ لقد أخذ في التراكم منذ أن انْكفأ العقل وانحسر الاجتهاد، فلا يجب أن نحمّل كلّ مصائبنا إلى الامبرياليّة وهي ليست بريئة، فلا تظنّنّ أنّ عصورنا الذهبيّة قد خلتْ من محاولات الهيمنة، غير أنّ أسلافنا قد فهموا اللعبة، وأوجدوا لها الحلول، وأهمّها تملّك أسباب القوّة وما لم نصل إلى هذا المستوى من الفهم والتحليل؛ لن نصل إلى هدفٍ يُذكر، كنت أدري أنّي أحرثُ في ماء، وأنثر ياسمينًا في صحراء، وأصعّد الماء من السّفح إلى القمّة بيدي، ولكنّي لن أصمت أمام

أطروحات فاسدة وخطرة وهدّامة ومشبوهة.

استفزني يزيد ابني البكر وقرّة العين، وقد حفيت قدماي من أجل أن يدرس ويُصبح مواطنًا صالحًا بقوله «وماذا عن تطبيق الشريعة، ألا ترى أنّ الله يُعاقبنا لمّا ابتعدنا عن شرعته لماذا تهرب من الحديث في هذا الموضوع؟

فقلت له: إنّ مسألة تطبيق الشريعة تمثّل تحدّيًا ومأزقًا حقيقيًّا أمام التعدّديّة الفكريّة والدينيّة والثقافيّة التي تنصّ عليها الدساتير الداعية إلى احترام حريّة الفكر والعقيدة والتملّك على حدّ عبارة «منتسكيو» وتصبح بذلك الحاكميّة للشعب، وأنّ حاكميّة الله تمرّ عبر الشعب.

ألم تعلم أنّ الشريعة قد عُطّلت بعض أحكامها على عهد الخلفاء الرّاشدين المجتهدين المفحّصين للأحكام والنّوازل والمقاصد وفقه الواقع، لقد عدّل الفاروق حدّ القطع عام مجاعة، ونحن وعبْرَ عصور في مجاعةٍ مطلقة للغذاء والدواء والحرية والكرامة فأيّ تطبيقٍ سحريّ للشريعة يمكنه أن يحسم فيما نعاني؟

الأديان يا بني قيمٌ مفارقة لمرارة الواقع.

وحين يتوفّر العدل ويعيش الإنسان حرًّا كريمًا، فهذا هو جوهر شرائع السّماء ومقصدها لا نريد أن نُؤخذ رهائنَ لأصحاب العروش

والكروش باسم تطبيق مشوّه وجائر للدين في مجتمع متنوّع، ألا تعلم أنّ أعلى نسبة إلحادٍ قد سُجّلت في واحدة من هذه «المزارع» الخاصة التي تعامل شعوبها معاملة القطعان وتفرض عليهم تطبيق الشريعة؟

ولدي حبيبي، لا أريد لهذه الهوّة بيننا أن تتعمّق، فوجهات نظرنا متضاربة، أنا أفكّر في الكلّيات، وأنت ومَن لقّنك تشغلكما الجزئيّات، أنا أنظر باتجاه الأفق وأنت ومن لقّنك لا يتجاوز فكركم النفق.

فردّ عليّ منزعجًا: أجدك لا تختلفُ في تفسيرك عمّا يذهب إليه «بنو علمان»، ولا عجب فقد درست على يديهم، إنّ ما تقوله يتناقض مع ما حفظنا عن الشيوخ.

انْغلق الحوار بيننا، ونحن نعلم أنّ آخر الحبال بيننا قد قُطعت، هما في وادٍ أنفاقُه مظلمة بالدماء، وأنا لو قُدّر لي العيش بعد موقفي هذا سأكون في بيت الربوة حذوك.. بعد أن جئت إليهما أحزم أغراضي لأوافيك هناك.

قد أكون يا ريحانة مخطئًا في تقدير وضعيْ يزيد ودوسان ولديّ، ولم أكن أدري أنّ الفراغ الذي تركتْه أمّهما سيّدة الوردي برحيلها قد قلب حياتهما على عقبها، لقد أصبحا يختلطان ببعض الشباب في الأحياء القريبة، رأيتهما ينغمسان في ممارسة الرّياضة وأنشطة التخييم وبعض الخرجات إلى الجبال.. وبدءا يبيتان بعيدًا عن البيت، فتنقطع

عنّي أخبارهما وأنا أطمئنُ النفس بأنّهما ولدان مع أولاد، دعْهما يا روْحي يكبران وينحتان كيانهما، دعهما يا روْحي يتجاوزان مصيبةَ رحيل الأم، فقد كانا شديديِ التعلّق بها، دعهما يا روْحي فلا عمل لهما كالمئات بعد التخرّج فالفراغ مفسدةٌ وضيق.

ولم أكنْ أدري أنّهما انغمسا في أكبر مفسدة: التطرّف.

قلت لك يائسًا: وماذا كان بإمكاني أن أقدّم لهما أنا الموظّف البسيط قرُب تقاعده، هي اللقمة لا أكثر؟!

كانا يقولان لي قبل الاختيار الأسود «زملاء لنا في الجامعة أنجز لهم آباؤهم مصانع، وآخرون سُفروا إلى أوروبا، وبعضهم وُظّف، ونحن يا أبي!؟ ابحث لنا عمّن يتدخّل لفائدتنا أليس لك أكتاف سمينة؟

كان كلامُهما يصيب في قلبي مقتلًا، وأنا مقتنع بكلّ ما ذكرا..

ماذا كان لي أن أقدّم لهما، أنا الموظّف البسيط بلا «أكتاف» عشت على اللّقمة الحلال؟

ماذا كان لي أن أقدّم لهما غير ما استطعت أنا المهزوز قبلهما ألف مرّة بيتمٍ وفقْدٍ للأمل في الدنيا لفقدك وموت الزوجة، وفي قلبها حرقة امرأة عايشت طيف زوج.

وتئنّ ألمًا «هل يا ترى تسامحني زوجتي سيدة الوردي عن حياة بلا

حبّ؟ حياة أسّسها الحنين إليك وأحلامنا الخوالي، هل تسامحني على مصير الولدين من بعدها؟ هل أنا المسئول حقيقة عن كلّ ما جرى؟

أذكرُ يا ريحانة أنّها كانت تألم في صمت، وما إن رزقنا بالولدين حتى جعلتهما عالمها، ورفعت عني كلفة المجاملة، فقد قالت لي يومًا: لا شيء يكسر قلب رجل مثل امرأة أحبّ، ثمّ غدرته دون سابق كره، وأنت يا روحي قد غُدرت، تشهد عليك برودتك نحوي ومذكرات الدّرج، والرسائل التي عثرت عليها صدفة.. وأردفت: وهذيانك الليلي بها.

ظللت يومَها ملجّمًا وأنا أجلد روحي «لقد درتْ رغم أنّي غرست حكايتي معك يا ريحانة في قلب الذاكرة، وسيّجتها بكلّ ما أملك من صمت وأحزان».

أوصدت ليلتها سيّدة الوردي زوجتي بابَ غرفة نومنا وهي تقول: احترم وحدتي يا روحي فقد عجزت أن أعتلي عرشَ قلب ليس فيه شريانٌ ينبض لي.

فهل أجلد ظهري يا ريحانة، أم ألعن قدري؟... وداهمني البكاء.

فقلت لي ريحانة وأنا مستلقٍ حذوك كطفل يبحث عن الأمان: وكيف تعاملت مع يزيد ودوسان؟

هل فرّطت بهما نتيجة ما وقع وتركتهما للسواد؟

فأجبتك والنار بين جوانحي: قد يكون الصقيع الذي لفّ الأسرة له بعض الأثر، ولكن.. وحين علمتُ أنّهما تطرّفا ولبسا جلباب «التديّن» القاتل فزعت ورُمْت العودة بهما إلى نقطة الصفر، فلم أجدْ لديهما عقلًا أو نافذة ضوءٍ فقد أظلما وسارعا برفع جدار بيننا.

حاولت اللعب على الذّكرى وعبث الطفولة وتحريك الأشواق إلى حضني وقبلاتي وأكياس الحلوى واللعب البسيطة والمدرسة وقاعة التدريبات، كنت أقول ليزيد منتحبًا «كنت بطلًا في الكراتي قتال نبيلٍ بلا دماء، ما الذي أودى بك إلى الدّماء؟

وأنت يا دوسان، ما لك تُقلع عن الغناء ورسائل السلام وصوتك الجميل عندما تغنّيت بالإنسان وحبّ الحياة ونبذ العنف في حفل التخرّج بالجامعة، كيف تجهض الإنسان فيك يا ولدي؟.

وصحت ليلتها فيك وفي القدر: دعيني أنفجر.. لم أعدْ أقوى على الصمت.. كم كرهت أن أراهما يتسلّلان من الدنيا شبرًا شبرًا، لقد قاطعا الحياة بحثًا عن كفن موت بلا معنى، كثيرًا ما أصغيت لهما من وراءِ حواجز الفصل التي وضعاها دوني فلا أسمع سوى الحفظ والتّرديد لمقولات محنّطة «شوكة النكاية والإنهاك، إدارة التوحش، مرحلة التمكين وقيام الدولة.. دار الإسلام ودار الكفر، وأهل الذمّة والمستأمنين ودفع الجزية، الترقّي والتوسّع، الإثخان والتشريد...

رُعبت يا ريحانة من قنبلتين صارتا ببيتي، ولم أيأس من محاولات الاسترداد، ولم أفلح، هممتُ بتبليغ السلطة، ولكنّ قلبَ الأب كان يسبقني فيقطع طريقي إلى المخفر، وكان الجميع ساعتها مسترخيًا الحرّيات بعد الثورة على قارعةِ الطريق، والفوضى سيّدة الموقف والثوريّة خبزنا اليومي وماؤنا، فمَن كان ليهتمّ؟

أذكرُ أنّي يوم قررتُ الرحيل عنهما بعد يأسٍ قاتل، قد حللت عليك ريحانتي مع الظلام، وكنت مرهقًا إلى النّخاع، وبراثنُ اليأس قد عبّأت أعماقي، قلت لك والغصّة أكبر من أنفاسي: ضاع الولدان يا ريحانة، لن أراهما ثانية، فمنذ وفاة أمّهما وأنا أقاسي ويلات التمرّد بعد أن انْغمسا في حفظ الكتب الصفراء، وأقوال كأنّها منزّلة لحفّاري قبور الوطن، اللعنة على مَن أجهض أحلامَنا في أبنائنا وهُمُ كُثر، ضخّوا في صدورهم كراهية للجميع وسقوْهم حبًّا للتوحّش والدّماء، أيُعقل أن نصير في نظرهم طواغيتَ، أيّ شرع يُحوّل برّ الوالدين عقوقًا وأفًّا ونهرًا وقلّةَ معروف!؟

أيّ شرع يُبيح القتل حرقًا وذبحًا وشنقًا لموحّد على الشبهة والهويّة المذهبيّة!!؟

إنّها حربُهم علينا، ولكنْ بأيدينا، منّا الأرض والعرضُ، وأعوان التنفيذ العمي، ومنهم الأسلحة والتصاميم، حربُ القذارة واستعباد

تلوّن في ثوبٍ آخر.

نثورُ أو لا نثور، سنظلّ أبدًا في قلب التنّور، ومن حولنا العالم يرتقي ويدور.. ما لم نشتغل على الإنسان ووعْيه.

فأكّدت لي ليلتَها أنّ المؤامرة كائنة ولا ريب، وأنّ أصحاب السّموّ والنزول معنيون بإنجاحها، وتنهدّت متألّمة «تزاوج الغزاة بالبغاة، فأنجبوا الغلاة، تراهم جميعًا يجتهدون لجعْل أوطاننا فلاة.

آهٍ يا روْحي، ما أعمق جراحاتنا وما أطول عمرها!.

الفتنة الكبرى كبرت، وغدت فتنًا شاملة الدّمار، ولا أعتقد- يا روْحي- أنّ خور القرون وأمراضَ السنين التي اسْتشرت في بلداننا حتى النّخاع يُمكن التعافي منها بمجرّد قيام تحرّكات وثورات.

قلت لك: جلبة الشّارع لا بدّ أن تتوازى مع هدوءِ العقول واشتغالها بعمق، حتى يُعاد ترتيب الأولويات وآليات عملها، وأن تُراعي الحلولُ المكانَ والزمان، فنحن نتموقع ضمن عالم أصبح قريةً كونيّة، وفي زمن الثّورات العلميّة التي قلبت وجه العالم، وعولمة تقتحم غصبًا عنّا كلّ خصوصيّاتنا لتُشكّل في أوطاننا أجيالًا؛ وجبت مُجاراتها ومُرافقتها لإنقاذها من كلّ أشكال التطرّف.

فظللت تنْعمين وفيك مثل الحرقة، وأنت تقولين: هؤلاء الشباب يا روْحي يعيشون اليأس والفراغ، ويبحثون عشوائيًّا

عن مُخرجات، فتزلّ بهم الأقدام في عوالم المخدّرات والهجرات السريّة والمنظّمات الإرهابيّة، إنّه اليأس لا يلدُ إلّا دمارًا، ولو عدنا إلى تشخيص الوضع لوجدنا أنّ الساسة وأصحابَ العروش والكروش هم المسئولون عن ذلك بما بدّدوا من ثروات، وبما خلقوا مِن لاتوازنات، وبما فرّطوا فيه من استقلاليّة بلداننا، وجعْلنا تحت الرحمة والوطأة وأقدام العساكر.

أولادنا أكبادنا...

وانْخرطت في بكاء ظننته سيودي بروحك.. كنت أعلم أنّ ذكرى ولديك اللذيْن فُقدا منذ سنوات في أحد البلدان الغربيّة قد حلّت بك قاسية، ويلزمك أيّامًا من النحيب والغيبوبة قبل أن تعودي إلى الحياة، وأنت أقرب إلى الفناء.

أطلعتني على الرّسائل والتّدوينات وقد ضجّت جميعها بفتوّة وأمل في الآتي، قلت لي: بعد أن خلعا عن نفسيْهما أردية الانكسار والكآبة في إسبانيا.. استطاعا سريعًا الاندماج فقد كانا يُحذقان اللغة الإسبانيّة.

فلم يتوانَيا في استثمار الماضي والنّبش في التاريخ، فقد كتب لي «ألمعُ» مرّة مازحًا «اطمئنّي سنكونُ هنا في استضافة جدودك، أنسيت أنّك من أحفاد الموريسكيين الذين ما زالوا يتوارثون

عقودَ ملكيات بيوتهم ويحتفظون بالمفاتيح القديمة.. سنعيد ربط الجسور والجذور».

فقلت معلّقة: لقد اعتقدا- خطأ- أنّ «فيليب الثالث» قد مات واندثرت مراسيمه القاضية بالطّرد والقتل والتنكيل بمقتضى أوّل قانونٍ أسّس للتصفية العرقيّة والدّينيّة عبر التاريخ ضدّ مَن بنوْا حضارة مِن أرقى ما عرفت البشريّة ليتحوّل أصحاب الفكر الخلاّق والإبداع وحضارة قرطبة وقصر الحمراء؛ إلى مجرّد عبيد مسخّرين لخدمة أغنياء إسبانيا.

تصوّر يا روْحي أنّ القشتاليّين قد أعلنوا في ذاك الزّمن القبيح أهل مالقة جميعهم عبيدًا لملكي قشتالة وأراغون، بعد أن طالبوهم بافتداء أنفسهم مقدار ثلاثين دبلة ذهبيّة عن كلّ فرد، وحين لم تكتمل حكموا عليهم بالشغل المؤبد، وأرسلوا النساء إلى البابا ونبلاء أوروبا، فكيف لغوْر الجراح أن يبرأ؟

وانتصبت واقفةً تبحثين في الرّسائل والصّور، وتقرئين ما دوّنا، وأنت تقولين: لقد أصبح الولدان يهتمّان لتاريخ الموريسكيّين، وانخرطا في نشاط منظمة الشعب الأندلسيّة التي تهدف إلى فتح دهاليز الماضي المطلّة على مقرّات محاكم التفتيش في الأديرة والكنائس أين مورست أبشعُ أشكال التعذيب من جلدٍ ونزع للأظافر وكيّ

بالحديد المحميّ ونزع للشعر وإخصاءٍ وحرقٍ للمسلمين على أعواد الحطب ومحاكمات للنّوايا بتهمة عدم التنصّر.

وقرأت لي تغريدة احتفظت بها تقول «الفاتيكان والكنائس ترفض فتح أرشيفها كي لا تظهر وثائقُ جديدة عن فظائع محاكم التفتيش»

فقلت لك: لا أحد يمكنه النّفاذ من محاكم تفتيش التاريخ وإنْ طال الزّمان، أعلم أنّ الكثير من المستشرقين قد أوغلوا في الحفر، حتّى أنّ البرلمان الإسباني قد تحرّك منذ سنوات ليعيد فتح صفحات التاريخ الأسود لإسبانيا، وقد قُدّم مشروع ينصّ على ردّ الاعتبار لأحفاد الموريسكيين.

فعلّقت بتهكّم: ومِن المستشرقين أيضًا مَن اعتبر محاكم التفتيش «خطأ غير مقصود».. ولكن ما حزّ في نفسي ودعاني للتأكّد من انتفاء قيمة المنهزمين تاريخيًّا هو أنّ يهود الشرق «السفارديم أو المارانوش» قد وقع طردهم منذ سنة 1492 قبل المسلمين على عهد الملك فردناند والملكة إيزابيلّا، وها أنّ الملك خوان كارلوس قد اعتذر منهم، بل قد سُمح لأحفادهم بالتمتّع بالجنسيّة الإسبانيّة، أمّا الموريسكيّون الذين نسيتهم حتى ذاكرتنا لم يُعتذر منهم فقد ظلّوا ينتمون إلى أمّة منهزمة تاريخيًّا.. فأين هي محاكم تفتيش التاريخ؟

التّاريخ يا روْحي يُكتب في جانبٍ كبير منه بيدِ الأقوياء والمتنفّذين.

قلت لك: وهل قدّموا تبريراتٍ لهذا التمييز بين يهود ومسلمين، وكلاهما طرد؟

فقلت لي غير مقتنعة: تبريرهم يا روْحي أنّ اليهود قد حافظوا على الرابط اللغوي مع الأندلس من خلال لهجة «اللّادينو»، وتجاهلوا بالمقابل قـوّة الرّوابط الثقافيّة التي حافظ عليها الموريسكيّون في الموسيقى والأسماء والنّمط المعماري إنّه تراث بأكمله، تأكّد يا روْحي أنّ أسبانيا قد تعاملت مع اليهود من باب المصلحة لا تصفية للحقبة التاريخيّة المظلمة، قل هو استجابة لمَن يتحكّم اليوم في القرارات الدوليّة.

وأضفت «إنْ كانت أسبانيا قد قامت بتعديلٍ لا دستوري يتعلّق بالقانون الذي يفتح أمام السفارديم إمكانية الحصول على الجنسيّة الأسبانيّة باعتبار أنّ أسبانيا دولة لا دينيّة؛ كان عليها أن تكون أقلّ انتقائيّة وأكثر إنسانيّة مع الموريسكيين.

ثمّ أريتني صورةً للولدين مأخوذةً على إحدى الهضاب الجميلة بإسبانيا، قالا إنّها تُسمّى «هضبة زفرة العربيّ الأخير» الهضبة التي حبا إليها أبو عبد الله الصغير كتيس شبق بعد أن سلّم المفاتيح ليزفر، ولكنْ متى كان الزفير مخلّصًا أو بديلًا عن الأوطان؟

وتلاحقت زفراتُك حتّى ظننتك هالكة، فقلت لك: لن نبرأ يا

ريحانة إنْ لم نتجاوز ولن ننهض إذا ظللنا نُحمّل الآخر هزائمنا، لقد اعتبر القشتاليّون وجود العرب المسلمين في جزيرة أيبيريا استعمارًا، وعملوا على استرجاع الأرض مغتنمين تناحر ملوك الطوائف وانغماسهم في اللهو والمكائد ومناصرة الأعداء على إخوانهم دون أن يقرؤوا الواقع والتاريخ، فلم ترحمهم الجغرافيا، ألم أقل لك إنّ التاريخ عبء والجغرافيا أمانة؟

ونُحت بحرقة: ليت الصورة لم تكنْ، لكانا نجيَا من الاغتيال، لقد غرسَا يومها لافتة على تلك الهضبة الملعونة نُمقت بلغة موريسكيّة «الخاميادو ورد فيها التالي».. في 9 من أبريل 1609 حُبّر قرار طرد الموريسكيّين، وترجموا تلك اللافتة الملعونة لكلّ لغات العالم.

ثمّ ذيّلوها بدعوةٍ لفتح الصناديق السّوداء لإثبات جرأة إسبانيا الأدبيّة وتحضّرها.

يومَها يا روْحي تهاطلت الرّدودُ العنصريّة والمتبنّية لكلّ ما نتج عن محاكم التفتيش، بل ودعَا بعضهم إلى تفعيلها ضدّ العرب والمسلمين المقيمين في الغرب مستندين إلى رأي عام سُخّر لأحقادٍ عنصريّة بناءً على أعمال إرهابيّة لا ندري منبتَها ولا مَن يدير عجلتها. وأخذت رسائل التهديد تصلُ الولدين تباعًا، ولم يعبأ بها.

وكانا يؤكدّان لي حين نتواصل قائليْن: نحن ننهل من مبادئ

«النظريّة الأندلسيّة» أهمّ الكتب التاريخيّة لـ «بلاس أنفانتي» أبو القوميّة الأندلسيّة ومفكّر انبعاثها المعاصر ومؤسس المركز الأندلسي في إسبانيا، والذي تحوّل إلى مدارس لأنشطة تثقيفيّة، لا تنسي أنّ المسألة الأندلسيّة في إسبانيا قبرتها محاكم التفتيش في القرون المظلمة، ولكنّها ظلّت حيّة، وها هي مُنبعثة يحملها شبابٌ متحمّسون لإعادة النظر فيما وقع، مُطالبين بإرجاع الحقوق لأصحابها، لقد وجدنا أصدقاء ودماء تجمعنا، اذكري أنّك مَن علّمنا الإيمان بالقضايا الكبرى.

لقد صرنا من أبناء «بلاس أنفانتي» نناضل من أجل راية أندلسيا ذات اللونين الأخضر والأبيض، الراية التي رُفعت على مئذنةِ جامع إشبيليّة بعد انتصار معركة الأرك.

انظري.. ما أجمل عباراتها:

الرّاية البيضاء

ها هي تعود بعد قرون

لتعلن السلام والأمل

تحت شمس أرضنا الحبيبة

قوموا أيّها الأندلسيون

طالبوا بالأرض والحريّة

قفوا من أجل أندلس حرّة

من أجل إسبانيا وسائر الإنسانيّة.

وكنت أردّ عليهما محذّرة: لكنّ أتباع «فلانجي» قد قبضوا على «بلاس أنفانتي» عند انفجار الحرب الأهليّة، وأعدموه رميًا بالرّصاص، فبكته إشبيليّة وقادس ومالقة وأندوخار، ولم يفلحوا في الثأر له عدا تلك الثورات المقبورة.. أخاف عليكما من أتباع «فلانجي» الجدد يا فلذتيْ.

أذكرُ يا روْحي أنّ «أزد» قد تواصل معي ليلةً، وفرح يخترق عبارته كتب «لقد تعرّفت على قريبةٍ لك بالتأكيد وهي تشبهك، قالت إنّها من حفيدات نزهون الشاعرة الغرناطيّة المنحدرة من سلالة فارس غرناطي، شارك في حرب البشرات، وهي بصدد التأريخ لتلك المرحلة والبحث في المسكوت عنه.

رددتُ عليه غير عابئة: متى ينتهي الحلم يا بني؟

فأجابني بحماسته المعهودة: إنّها إحدى أقارب «رودولفو خيل بن أميّة الأديب والصحافي المستعرب، وهو موريسكيّ غرناطيّ، وأضاف «إنّ أمّه من أسرة غرناطيّة ترجع إلى «عبد الله شقيق محمد بن أميّة» قائد ثورات البُشرات الغرناطية، ألم يكن أجدادك وقودها يا أمّي؟

لم يكدْ ينهي حتى عمّني حزنٌ، وعادني الماضي بكلّ أوجاعه وازْداد توجّسي، وعلمت أنّ الولديْن في خطر، وأنّهما قد لامسا الخطوط الحمر.

وعشت إثرَ ظهور صورتهما على «هضبة زفرة العربيّ الأخير» وتفاعلاتها في خوف، وجثمَ على صدري الماضي بحكايات الجدّات المتوارثة، فالمقهور تتطوّر لديه الذّاكرة وتُصبح خزّان مشاعر وأحداث.

كنت يا ريحانة حين يبلغ بك وجعُ الحاضر أبعد مدى تسارعين إلى التخفّي في الماضي، تبْحثين عن مهْرب، عن أفيون يبدّد الهنا، والآن..

أذكر ما قلته لي إثر هروب ما «كان بيت أبي يا روْحي من طرازٍ عربي قديم، تطلّ الغرف فيه على وسطِ الدّار الشاسع الذي تتوسّطه شجرةُ الليمون، وقد عانقتها شجيرات الياسمين، فيه ينتشر عبقُ النّعناع وعبير القرنفل.. فيه كنّا نتحلّق حول جدّتنا «شوريّة» طلبًا للحكايات، والقمر المكتمل يُطلّ علينا من سماء مكشوفة في خيلاء.

كانت في كلّ ما تروي تؤكّد على بطولة الأسلاف في مقارعة القشتاليين دفاعًا عن الوجود زمن حربِ التصفية، وكيف أنّ الموريسكيين أجدادها ظلّوا متمسّكين بعاداتهم وتقاليدهم ومارسوا شعائرهم في السرّ، وتواصلوا بلغتهم «الخاميادو» رغم إجراءات الكثلكة ومنع تداول الأسماء العربيّة، وقد جاءت الأوامر الملكيّة

تقضي بالإبقاء على الأبـواب والشبابيك مفتوحة فلا يمارس «الموريسكوس» هويّته سرًّا.

وتُعلّقين متألّمة «تصوّر يا روحي أن تنام ومداخل البيت وشبابيكه مشرّعة، أيّ قهر!!

تصوّر أن تكون مكشوفًا للّصوص والمتحرّشين، أيّ ذلّ!! يا أبا عبد الله الصغير لماذا لم تكبر!؟

فقلت لك حينها: ألا تريْن ريحانة أنّ كلّ أوطاننا قد غدت بيوتًا مكشوفة، وأنّ أبا عبد الله الصّغير ما فتئ يحبو في كلّ شبرٍ عربيّ كتيسٍ شبق نحو الهضبة يلقي بكلّ المفاتيح ذليلًا؟

فأنعمت وأنت تكملين حديث الجدّة في قولها «إزاء الظلم والقهر ومراسيم البيوت المكشوفة

يا أبنائي قرّر جدّكم الأكبر «جواد الغرناطيّ» أن يتوجّه إلى جبال «البشرات» كما الكثير ممن لم يحتملوا الضّيم في محاولات دفاع عن الذّات والوجود، وقد رُويت لنا بطولاتهم فيما قاموا به من ثورات في غرناطة القديمة بمنطقة «البوخارا» وحيّ البيازين، وكان من أبرز القادة الموريسكيين «فارنندو القرطبي».. ما أقوى الذاكرة حين يصبح الكيان مهدّدًا.

تقول جدّتي «لقد نُسج حولَ المحتمين بالجبال الأساطير

والقصص حتى أنّ القشتاليّات كنّ يُفزعن أبناءهنّ بالحديث عن الموريسكيين المتخفّين في الأحراش والجبال يقطعون الطرق ويقنصون التّجار وجنود الملك، وقد لمع اسم جدّكم الأكبر «جواد الغرناطي» فشدّدوا على من تربطهم به صلةُ قرابة أو جيرة، وقتّلوا مَن قتّلوا، وشرّدوا مَن شرّدوا، فرحل آباؤكم الأولون في الموجات الأولى إلى عدوة المغرب بعد أن صادروا ممتلكاتهم وافتكّوا صغارهم، ومن بقي ظلّ مضطهدًا مسخّرًا لخدمة بساتين الملك أو التجديف في أسطوله الحربي في ظروف لا إنسانيّة تحت نير الجلد وإلقاء الواهنين في البحر أحياء.

لم نكنْ نحبّذ تركيزها على المآسي فكنّا نحثّها على ذكر بطولات جدّنا الأكبر «جواد الغرناطي» فتأخذها النّخوة تترجم عنها بسمات الرضا وهي تقول «كان فارسًا لا يُشقّ له غبار، لقد أخذته الحميّة حين سمع صراخَ صبيّة الجيران بعد أن داهمها جنود الملك يرومون اغتصابها فكان لهم بالمرصاد، وقصف أرواحهم قصفًا، وفرّ إثر الحادثة إلى جبال «البشرات» لعلمه بانتقام جند الملك، وظلّ يقاتل إلى آخر رمق.

سألتها يا روْحي عن الصبيّة، فقالت والأمثال الموريسكيّة حاضرة في حديثها: «من ادّهن بزيت السلطان أقرع يصبح» المسكينة

أخذها الجنود إلى إحدى الكنائس وغرسوا في ثدييها مسامير محميّة وربطوها خلف جياد ظلّت تجرّها وتطوف بها أحياء الموريسكيين حتى فارقت الحياة.

كانت جدّتي تترع أخيلتنا بحكاياتٍ من واقع أقرب إلى الأساطير مجنّح يصدم إنسانيّة الإنسان، وتجعلنا نسافر في المئات من السّنين في قنوات عروقنا الأولى وشرايين الأجداد هناك.

وكانت جدّتي- رحمها الله- تنهي حكايتها بما يشبه الحكم.

لقد أكّدت لي يومها «إنّ مآسي الماضي يا روحي كبّلت مستقبلنا وأورثتنا قهرًا وعقدًا وزرعت في نفوسنا هزائمَ لا ندري متى ننتصر عليها، وحتّى نصير ما نُريد لا بدّ أن تحمل مآذن المدن العربيّة الأعلامَ السوداء كلّ جمعة حدادًا على سقوط الإنسان بمدنه وقراه وأريافه ووديانه وبحاره وآباره، وحتى ما يتنفّس من هواء.. فلا تُترك مدينة «شفشاون» الموريسكيّة وحدها تتكبّد حدادَ الوطن العربي المزروع بين المحيط والخليج، وطن بين موت وموت.

ثمّ انفلت عقالُ الماضي وعدت تسردين لي بلا كلل واقعةَ اغتيال الولدين كما وصفها أحد المقرّبين منهما.

قلت وقد تلبّستك قوّة لا أدري مأتاها: لمّا بلغني الخبر المشؤوم طرت إلى إسبانيا دون أجنحة وأنا كالجثة..

وظلّت الحرقة تسير بي من مخفرٍ إلى آخر، ومن شهود إلى متعاطفين حتى التقيت صديقهما «مورينو».. فقد حدثني ودموع تغزو عينيه «إنّهما من أطيب الخلق صاحبيْ مبادئ، لم يؤذيا بشرًا. وواصل: كنت سيّدتي في تلك الليلة اللعينة أحتسي مشروبًا في الجوار، وفجأة تلاحقت زخّات من الرّصاص هزّت صمت الحيّ، فأسرعت مع ثلّة من الساهرين نستقي الحدث، وكان القاتلان بصدد الفرار لولا تدخل الشرطة، لم أتبيّن ملامحهما فقد كانا يلبسان ما يشبه أردية «الكلو- كلوس- كلان» ولا عجبَ فهي مستوحاة من ملابس رجال محاكم التّفتيش الذين روّعوا الموريسكيين في ذاك الزمن... وأردف حزينًا وخائفًا «شكرًا للربّ أنّهما يقبعان في السجن ولن يذهب دمُ ولديك هدرًا. ثمّ حضنني بحنوّ وهو ينتحب «أنا ولدك.. أنا ولدك.. وسأظلّ ومَن معي من الشباب نحمل همّ القضيّة الموريسكيّة كمظلمة من أشنع مظالم التاريخ.. وسيهنأ ولديك في قبريهما.

كان وعد «مورينو» آخر ما سمعته منك ليلتها وصرخة في حجم الكون.

«أحمّل القدر، أحمّل تاريخنا الأسود المهزوم، أحمّل العالم الغربي المتشدّق بالحريّات والعدالة، هذا القهر.

وأحمّل أباهما غيث البارودي مسئوليّة فقْد الولدين، لقد سئما سلبيّته وكآبته التي حوّلت بيتنا إلى مقبرة منسيّة، فقد قالا لي قبل غيابهما ذات مرّة: مَن لا يُعطي الحياة قدرها لا ينجب أبناء، كرهنا رائحة الموت في هذا البيت وسوف نغادره يومًا، لا نريد أن نكون مجرّد رقم في الإحصاء في هذا الوجود. العالم يزخر بالقضايا العادلة وبالمآسي البشريّة فإن استحال علينا النفاذ من حدود العبادلة الصغار المتمترسين خلف خياناتهم وهضابهم، المجاورين للأقصى أو البعيدين في صحاريهم يكرعون آبار البترول لتتدلّى بطونهم وبنوك الغرب، فنحن- أمّاه- سندقّ الباب من الدّاخل ونثير المسألة الموريسكيّة في عقر دارغرب يكيل بالمكيالين. فهل ترين فرقًا بين القضيّة الفلسطينيّة والقضيّة الموريسكيّة، الأمر يتعلّق بجزئيّات بسيطة، ولكنّ الممارسة هي هي، والظلم يمكن أن يتزيّن بألوان الحرباء، ولكنّه يبقى ظلمًا وقهرًا وجب فضحه ومقاومته.

ظننتهما يا روحي غير جادّين حتى وقع ما وقع.. وعمّك النشيج والهذيان.

فقلت لك مواسيًا: تشابهت يا ريحانتي أقدارُنا الموجعة، وعشنا مآسيَ مشتركة وأخرى مكرّرة، غادرنا الأبناء لحججٍ واهية أو مقنعة، لسنا ندري ولكنْ كلّ ما أعلمه أنّ خللًا ما كامنٌ في علاقتنا بهم، وأنّ

ظروفًا تظافرت لتلدَ هذا الشتات، كياناتنا مهدودة ونحن عاجزون عن البناء الإيجابي وإقامة علاقات سويّة، ليس الأبناء من يتحمّلون وحدهم هذا الخطأ، علينا مراجعة سلوكنا، وعلى النظم الاجتماعية والتربويّة أن تدرس الإخفاقات وتُبادر إلى إصلاحات جوهريّة.

ظلّت ليلتها فناجين القهوة تتناطح، وأنا أجاهد أرقًا أحاط بي وما فتئت الهواجس والأفكار غير المُتناغمة تُراود ذهني، وأنا أسأل بحرقة «مَن له المصلحة في جعل شباب الوطن وذخره يُسافر للقتال والتّحمّس لقضايا مفتعلة.. لو تركت سوريا للسوريين والعراق للعراقيين واليمن لليمنيين لأوجدوا الحلول المناسبة.

غير أنّ الأيادي الخبيثة لم تفتأ تُحرّك خيوط اللعبة الشيطانيّة موظفة أولئك وهؤلاء لتنفيذ الأهداف المرسومة وخدمة مصالح الهيمنة وأجندات النّهب والإبقاء على هذه الشعوب رهينة تلهث خلف القوت وتنتظر الموت.. لا أمن.. لا كرامة.. لا وعي.. ولا أمل.. مع حماسةٍ زائدة لتهديم أوطانها بأيديها، وكأنّما قدرها أن تعيش في المنافي والملاجئ والمخيّمات.

ريحانتي، ها أنّك حذوي وقد غشاك ألمٌ، ورُحت في نومٍ أشبه بالإغماء بعد أن صرت تُحاربين الصّحوَ الفاجع بأقراص سحريّة، أعلم أنّ ما جدّ في حياتك كان كفيلًا بهدّ الجبال وتجفيف ماء

البحار، بعد أن سرق فرحك بي وبالأبناء وزرع فيك بذور الفجيعة والإحباط والدّمار.

عدت الآن إليّ كتلة من الوجع فضممنا خيباتنا وحطام حياتنا نغالبه بالصبر والبكاء حينًا، ويهزمنا أحيانًا فنأوي إلى أركان البيت نستجير راحة الأبد.

(16)

تصدير:

الموت هو الخروج عن الحسّ المطلق إلى الحس المشترك.

ابن عربي

الظهيرةُ

وها أنّك ريحانتي ضيفةً لدى الرّاحة الأبديّة.. مضيت وتركت نبضات الفرح ووخز الوجع وسنين من الهزائم ووعود نصر، وفصولًا شتويّة موحشة عانيتها، وناضلت حتّى تنقشع ويُقبل الرّبيع محمّلًا بعبق النرجس وبنفسج الزعتر والدفء.

قارعت الوحدة بابتسامات مُلغزة أوجزت قصصًا من الخديعة والخذلان، لقد ظلّ نحت الذّات فيك قائمًا لا يخمد، وقدرة على الثبات لا تلين كما الصخر، فكيف أقدر اليوم على الرّثاء؟ وماذا أقول.. فأنت فوق الكلام والغمام، أنت بحجم هذه السماء.

أنت وردةٌ دائمة الحرق والانبعاث من رحم الرماد.. أنت سحر ليس به كيْد ولا وعيد ولا حرام.

أنت ترنيمةٌ مُقدّسة رفرفت على أجنحة الحمائم والنّوارس في سماء الجوامع والكنائس وأديرة النّسّاك والمتعبّدين.

أنت نورٌ متمرّد على الظلام، وعشقٌ مستحيل حمل باليد كفّنا، وبالأخرى سهم غرام، سافرت في الأعوام بلا تأشيرة سفر، وظللت تَخاتلين عواصف الزّمن ومطبّات الحياة.

أنت زهرة لوز.. قرنفلة بريّة ونرجسة ثارت على الوادي، رام استعبادها وماتت عطشى بلا إذلال.

أنت ريحانة روْحي، حوَتْك جوانحي، ولأجلك كان النبض والهوى وجنون أوّل العمر ونهايته.

كنت عصيّة عن القهر والاحتواء.

لفقدك تسمّرت ساعتي في عقرب الظلام، وقبع الفجر بعيدًا لا يجرؤ على المكان حيث أنت مسجّاة في خيلاء مَن علموا أنّ الحياة معركة بلا قانون، وأنّ الذلّ نهاية من يرفع الرّاية البيضاء.

أنت نهايتي.. خطّها حبرُ فقْدِك، غير أنّ الروح ستكابر إلى حين..

متى يجرؤ الفجر؟ وأين الصحو؟ هل تجهّز للرّحيل؟

قمْ يا روْحي، ودّع الليلَ الأخير، وانتظر بُزوغَ الفجر الأخير؛ فريحانتك مع أوّل الصحو ستطير على أجنة الغمام.

ها فجرُك الأخير قد شرع في التشكّل منذ سويعات هناك بعيدًا... عند الهدوء المباغت للعاصفة، وقد انطفأت جذوتها كأنّما مسّها السّحر بعصاه.

لا ريح.. لا مطر.. لا قصف.. لا حياة.. لا حبّ.. لا ريحانة.. آهٍ يا وجعي...

كنت يوم الفجر الأخير من الشرفة أستشرفُ أفقًا فيه أنوار

تتوالد، تتدافع وأمامها تتهافت كلّ الألوان الرّماديّة المشبوهة المتردّدة القلّب.

الأنوار تبرزُ جليّة مبهرة واثقة تتّجه رأسًا إلى الهدف.. وتتراقص حول بيتك تروم ملء الفراغ؛ فالنور يأبى الظلام، عجبت لتلك الحركة بين مختلف عناصر الطبيعة وذاك التماهي والتّخلّي في صمت.

كان الهدوء خشوعًا، وصلاة، والقرية مترعة بالمياه والنقاء.

وصمت الجنائز قد خيّم.

والعصافيرُ قد شرعت في الانتفاض والتخلّص من رعب الليلة الهوجاء، يُسمع تغريدها مرثيّة متلكئة تخنقها العبرات، غير أنّها تحلم بالدفء والقدرة على الهجرة في أسراب دون عاصفة أو بكاء.

عادت الحياة للمكان وما حوى، وظللت وحدك الاستثناء.

آهٍ يا وجعي المؤبّد، أتدرين أنّ حبّك خرافة بلا خاتمة ولا قفل ولا أرقام سريّة.. وحلم ظننته فوق شبهة الكوابيس وأهوال الهذيان، فإذا هو بؤر من التوتر وملخّص كلّ الأحزان.. هو الأفراح تُنحت في قلبي من كلّ الأوجاع لتطير بي فوق المستحيل.

سوف لن أنسى أمسية ما قبل الرّحيل إلى الفناء.

الآن أستردّها فتتعالق الحالة ومغزاها.

والآن أعي أنّك اجتهدت في إخفاء شعورك بحلول المحتّم.

والآن أصدّق ما يُقال عن استشعار الطيّبين لرائحة الموت من حولهم فيستعدّون.

فجر ذاك اليوم الأخير في بيتنا الجبليّ رأيتك تعودين من البريّة محمّلة بباقة من النرجس، كنت تُغالبين الخُطى...

تمشين وتتوقّفين.. تُحدّقين بالمكان من كلّ صوب.. وتلتهمين نسمات الفجر كمَن قارب الاختناق، توجّست صنيعك، وناديتك ريحانتي، ما الأمر؟

فجاءني صوتُك من عالم آخر، كان هادئًا ومحمّلًا بذبذبات غريبة «الزّاد من الهواء ضرورة تحتاجها الأنفس حين تُسدّ من حولها جميع المنافذ.. فدعني أشربه هذا الصباح نقيًّا، باردًا، فلا حاجة لي في غذاء غيره، هو وحده القادر على الإفلات من جحافل الدّيدان.

قلت لك وقد اعتدت ردودك الغريبة «القهوة معتّقة في فناجينها تعالي نرتشفها كما كنّا معًا.

رددت «أحتاج الماء والهواء يومي هذا...

وصمت عن الكلام، واحتدّ شغفك بالبيت وأركانه، وصورنا وأغانينا المحبذة.

وعند حلول المساء، جئتني إلى الشرفة، كنت واهنة وتُكابرين، حضنتني بما بقي فيك من قـدرةٍ، وقلت وعيناك مسمّرتان في اللّامرئي «السفر في المجهول عذاب للقاعدين.. يؤلمني قعودُك يا

روْحي.. ورسمت قبلة جمرة على جبيني، وأردفت «اشتقت أن أزور قريبتي في القرية خذني الليلة إليها يا عمري.

انسللت في ذاك المساء مِن بيتنا كنسمةِ صيفٍ هاربة من ويل الهاجرة ولم أنسَ قولك «نرجس الحديقة يا روْحي يحتاج الماء، وإن كنّا في فصل الشتاء كم تمنّيت أن أراه حقولًا موصولة بالأفق؛ لكان لي مزاج آخر.. وعمر في ألقه..

أقسمت لك أنّنا سنرويه من الحبّ والماء عند عودتك فأمانيك «تغذّي أحلامي..

يومَها رأيتك تفتحين صندوق الجدّة شوريّة الذي لم تتخلّ عنه مطلقًا.

كنت تلهثين وأنت تقلّبين أغراضه حتى عثرت على «الفرّاشيّة الأندلسيّة» التي طالما حدّثتني عن تعلّق الموريسكيين بها، حتى التّقديس أحيانًا، وأنت تردّدين قول الجدّة «الفرّاشية الأندلسيّة يا ابنتي ستر لنا في الحياة والممات»

فقلت لك مستغربًا: تجلّين الفرّاشيّة صحيح، ولكنّك لم تلتحفي بها منذ مدّة، فماذا دهاك هذا المساء أتشعرين بالبرد؟

فنظرت إليّ بعينين خامدتين، وأنت تقولين وبِكِ بحّة غير معهودة «الفرّاشيّة الأندلسية ستر لنا نحن الموريسكيين في الحياة والممات»

ثمّ شددت على يدي بقوّة لم أعهدها وأنت تسألين «هل العود على البدء مطلق؟ أو ليست نقطة البداية هي عينها نقطة النّهاية وما بينهما الوهم؟

حشتُك ساعتها على السّير، فالزّمن ليس للفلسفة والظلمة تهمّ بالمكان، ونحن على أطراف غابة «غير أنّك كنت واهنة تجاهدين أنفاسًا عصيّة وآهات عسيرة المخرج كانت تُربك مشيتك وشحوب غريب قد ألمّ بك.

ويلي.. الآن دريت أنّ الموت اللّعين كان يُخاتلني، ويهرب بك بعيدًا عنّي حتى يتمكّن من غزو جسدِك الضعيف دون أن أفسد عليه نشوة الهيمنة ونشر الفناء.

ودّعتني قبل أن نصلَ إلى بيت القريبة بحضن دافئ.. عيناك في عينيّ، وأنفاسك تلتهم أنفاسي، وأنت تُوشوشين «اسأل عنّي القريبة على هذا الرّقم» فقد يطول بي النّوم.. ولا تنسَ؛ فأنت مجرّد صديق.

انفصلت من حضني انفصالَ الرّوح من الجسد، وتثاقلت خطواتك بعيدًا عنّي «وظللت أرصدك حتى غيّبك الغروب وأسوار القرية.

عدت ليلتها أدراجي، وقشعريرة مفزعة تستولي على كامل جسدي.

وإذا البيت في وحْشة غالبتها بالصبر والدّعاء.

الدّعاء ذاك البلسم، أرفعُه الآن إلى ربّ السّماء فيما يرفعون نعشَك على الأعناق، ويبتعدون بك سريعًا إلى مقبرة القرية قبل عودة العاصفة، فنُذُرها قد ألهبت وجه السّماء مثلما ألهب روحي الفقدُ يا ريحانة.

لم تعدْ بي قدرة على الخيانات..... موتك والله خيانة.

بنزرت

فجر 26 من جوان 2018

فهرس المحتويات

تصديـــــر 5

الظّهيرةُ 8

الرّواحُ 20

العصرُ 34

العشيُّ 52

الغروبُ 60

الغسقُ 82

العتمة 98

الفحْمةُ 114

الزلّةُ 122

الزّلفةُ 132
البُهرةُ 150
السّحرُ 160
الفجرُ 176
الصّبحُ 186
الضّحى 206
الظهيرةُ 232